بأقصي سرعة

بأقصي سرعة
مجموعة قصصية
اسلام شاهين
الطبعة الأولي .. ديسمبر ٢٠١٣

الغلاف : إيمان صلاح
اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٣٩٩٣
الترقيم الدولي : 978-977-6412-51-4

إن دار الحلم للنشر والتوزيع، غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج
محمول : 01141824562
dar_el7elm@hotmail.com

بأقصى سرعة

مجموعة قصصية

اسلام شاهين

ʒ

اهداء

اهداء للمعلم الأول، الأب الروحى إلى ملهم العقول والقلوب إلى
الدكتور مصطفى محمود .

الصـنـــــدوق

بينما كنت في طريقي اجتاز الأيام و الليالي غير عابئ بما برح من حياتي، إن كان قليلا أو كثيرا. كل شيء كان سواء، نهاري و ليلي حزني و فرحي ضحكي وبكائي، حتى تلك اللحظة التي عثرت فيها عليه، لا أعرف إن كنت أنا الذي رأيته أم هو الذي رآني، كل ما أدركه أني وقعت عليه أخرجه من مكمنه في الأرض بجوار مقابر المدينة القديمة، يلتهمني الفضول و الحذر، نبشت الأرض بأظافري حتى امتلكته بين يدي، اختلست النظر سريعا من حولي، وأيقنت أن لا أحد يفطن لسري، ضممته بين أضلعي و ذراعي كأنه وليدي، هرولت مبتعدا بالصندوق و أنا خائف أترقب، قبضت على كنزي قبضة الغارق على طوق النجاة.

أحسست الطريق طويلا إلى البيت و رأيت أعين الناس تطاردني، تطمح أن تهتك سري، مرقت إلى داخل البيت فزال عني الخوف، اعتليت درجات السلم و قلبي ينبض بالفرح، أكاد أطير غير مصدق إني وجدت كنزا.

وأي كنز..؟ صندوق صغير ثقيل.. !! ربما كان صندوق مجوهرات، أو صندوق تحف أثرية قديمة لا تقدر بمال، أو ملئ بالعملات الذهبية القديمة، ربما في داخل الصندوق أكبر جوهرة في العالم.

دلفت إلى الحجرة سريعا و أغلقت الباب دون أن ألفظ كلمة، أخرجت الصندوق من مأمنه وأزلت عنه القاذورات، فبدا لي أبيض اللون ناعم الملمس ذو بهاء آخاذ ، أخذت أدور حوله أتأمله و قد زاغ منى العقل وانفرط الوقار. رقصت من نشوة الفرح, تراءت لي أطياف الأزمان الغابرة و طفت بخيالي موائد الملوك و بلاط السلاطين و صيد الغزلان في الوديان الغناء.

وفجأة بزغت أمامي حقيقة غريبة، الصندوق ليس به قفل ولا توجد

جهة واحدة يفتح منها، دققت النظر مرات و مرات، نظرت أسفله و من فوقه، تحسسته بأناملي.. وضعت أذني عليه لعلي أسمع شيئا، شممت رائحته، نبشته بأظافري دون جدوى.

ما هذا الصندوق.. ! من أي شيء صنع... !! و لماذا هو كذلك..؟ رجحته بقوة فلم يصدر عنه نأمة صوت، استثارني إحساس التحدي، وكأنه سلحفاة تحصنت بقوقعتها، و هي تضحك ساخرة من صيادها. و بعد وقت غير قصير تسرب القلق إلى زوجتي و الأولاد، ولكني لم أكن في حالة تسمح بالتفسير و التعليل، و قد استهلكني التفكير وأضناني الشوق والحيرة، أرعدت فيهم صارخا حتى لا يعاودوا الكرة مرة أخرى، وفي وقت متأخر من الليل وصل الصراع بيني و بين الصندوق العنيد إلى أوجه، استيقظ على إثره الجيران، منزعجين من تلك الضوضاء الهائلة، الناجمة عن أعمال التحطيم و القذف و الثقب و الخدش و التكسير، والأعجب أن كل هذا ذهب هباءا.

كانت معركة حقيقة خرجت منها منهكا مهزوما، لا يخلو جسدي من إصابات و خدوش، تهالكت على الأرض لاهث الأنفاس.... ثم أظلمت الدنيا و سكن كل شيء.

في الصباح استيقظت من غفوتي، و رأسي يكاد ينشطر من وطأة الألم، ظننت أني كنت أحلم بكابوس مخيف عن صندوق عجيب لا أستطيع فتحه أو حتى خدشه. لم أعد أطيق احتمال العبء وحدي، أخبرت زوجتي عن الكنز والصندوق. ظلت زوجتي تنظر إلى الصندوق في بله كأنه عجيبة من عجائب الدنيا، ثم أوجست منه خيفة مدعية أن في الصندوق عفريت، وأخذت تتبسمل و تتعوذ من شياطين الجن والإنس

أن يحضرون، وازداد معها قلقي و جزعي، حاولت كثيرا إقناعها أن في الصندوق كنز عظيم، يكفي لإسعادنا نحن وأولادنا طيلة العمر، و لكنها قالت..

- و لم لا يكون فيه هلاكنا جميعا ؟

قلت وأنا غاضب حانق..

- وما يضيرنا الهلاك مع هذه الحياة البائسة ؟

تأملتني في ريبة بنظر زائغ كأني مسني الجنون، تراجعت بظهرها إلى الوراء مبتعدة عني، وهي مازالت تلوك بشفتيها كلمات غير مفهومة، مما زاد من غيظي و سخطي. تيقنت أن فتح الصندوق العنيد أهون علي من جدال امرأة مخبولة بالخرافات والبدع، تركتني زوجتي وحدي و قد زادت من همي و يأسي، وقفت أمام الصندوق الرابض على المنضدة في سكون و وقار، غير عابئ بي و بحيرتي، يقف حائلا بيني و بين سعادتي وهنائي، جلست أمامه أبادله النظرات، أضحك بين يديه ثم أبكي أحادثه وأناجيه، أمازحه وأسترضيه، أهمس له بكلمة السر «افتح يا سمسم» افتح يا رمان.. افتح يا فول.. استوحيت من ذاكرتي قصص الأولين و روايات المغامرين و نوادر الرحلات، و السندباد وعلاء الدين، حككته بيدي، نقرت عليه بالملعقة بإيقاعات مختلفة.....؟!! أشعلت فيه النيران، أغرقته في الماء، وقفت على أطراف أصابعي، تشقلبت ورقصت له وغنيت..... وأخيرا ضممته إلى صدري واستلقيت على الفراش و رحت أغط في نوم عميق، وفي الصباح جاءني صوت زوجتي من وراء الباب، تذكرني بميعاد العمل، ثم أسرعت مبتعدة مخافة أن تبتلى بالداء الذي ألم بي، ورغم كل ما حدث لي كانت هده أول ليلة أنام فيها نوما هادئا بلا كوابيس أو أرق، بل راودتني بشارات سعيدة و خواطر مفرحة. خرجت إلى العمل

ولكن في صحبة الصندوق، وضعته في حقيبة وحملته على كتفي، ورغم ثقل وزنه إلا أنني لم أستطع مفارقته، كاد الفضول يقتل زملائي في العمل لكنني لم أبح بسري إلى أحد.

ورجعت بالصندوق ومعي كل الكتب والمؤلفات التي كتبت عن الفراعنة وعن الرومان واليونان وغيرهم. رغم أني لم أكن من عشاق القراءة إلا أنني قضيت وقتا طويلا أنقب بين الأوراق و الحروف عن كلمة السر، التي تفك رموز هذا الشيء العجيب. مما زاد من يقين زوجتي بأني ممسوس، وأبت أن تنام بجانبي على الفراش و بجوارنا الصندوق، خوفا من أن يخرج المارد منه و يقتلنا و نحن نائمون، و لكنها مع الوقت ألفت الصندوق و زال عنها الخوف، واعتادت وجوده بجوارنا على الفراش، كان خوفي عليه يفوق أي شيء، والأجمل من ذلك ما قالته لي في أحد الليالي وهي تبتسم راضية

- إن أثر الصندوق عليك حسن.

سعدت بالإطراء.. و لكن ليس هذا هو آخر ما أصبوا إليه من الصندوق، إنه يعدني كل يوم بحياة هانئة ناعمة رحبة، وأنا على يقين أنه سيصدق وعده، ولكن بقيت القضية كما هي، أنا والصندوق و السعادة المؤجلة، والزمن يعبر حواجز المكان بسرعة مخيفة و العمر يتسرب لحظة تلو

الأخرى، أوقات كثيرة أثور عليه و أمقته و ألعن اللحظة التي وجدته فيها، وأوقات أخرى أشعر أنه أغلى عندي من حياتي نفسها و أني أحبه وأحب سره الغامض أيضا.

نصحني أحد المقربين أن أستعين بشيخ من العارفين، رجل فاضل صاحب

كرامات، ينشد مشورته القريب و البعيد، وعندما سمع الرجل حكايتي نظر نحوي في وقار وقال..

- الفدية.. الفدية يا ولدي..

وفي ليلة اكتمال القمر وعلى ضوءه الحالم، تندر الشارع كله بالحدث الغريب، عندما ضحيت بكبشين كبيرين، ولم أستطع تبرير السبب من وراء هذه الفعلة.. ولكني اغتبطت كثيرا عندما رأيت السعادة على وجوه الآخرين، و بالأخص زوجتي التي راق لها ما لاقته من ثناء و مديح و استحسان، ولكنها عاودت التفكير في الجان و السحر، فأفسدت طلاء البيت كله بدماء الكبشين. انتظرت طويلا دون فائدة ترجى، أنا واثق أن الكنز موجود وأشعر به، أتحسسه يناديني، يطالبني أن لا أيأس و أجاهد من أجله، يهمس لي في يقظتي ومنامي يحثني على الإصرار.

أراد صديق لي مساعدتي فساقني إلى رجل يصادق الجان، قال أنه يعلم السر وما أخفى.وفي حضره مهيبة بين يدي رجل الجان.. قال الرجل في ثقة واعتداد

- الصندوق يحرسه عفريت من الجن، هو عليه أمين مكين.

ومند تلك اللحظة بدأت رحلة إقناع العفريت بالتخلي عن مهمته الموكولة إليه، بالإقناع وبالسحر وبالغصب وبالاستعانة بقوى خفية، سفلية تارة وعلوية تارة أخرى، ونارية و مائية وترابية.. إلا أن العفريت كان أقوى من كل شيء، وعدت إلى نفس النقطة، لا أملك غير الأماني و الأحلام وصندوق مغلق. ومع مضي الأيام لاحظت شيئا غريبا يحدث، الصندوق الأبيض يفقد بريقه و قد استحال لونه الأبيض الناصع إلى اللون الرمادي، ضحكت و ضحكت كثيرا، حتى كدت أن أهلك من الضحك، لأول مرة يحدث شيء لهذا الصندوق اللعين، ربما هي دلالة لشيء ما يريد أن

يخبرني به الصندوق أو العفريت الحارس، الذي يأبى أن يقبل شفاعتي عنده وتوسلاتي كي يسمح لي بأن أحصل على كنزي .

نعم هو كنزي أنا، لو أنه كان كنز أحد غيري لما بقى الصندوق مقبورا في التراب إلى أن وجدته، إنه قدري أنا وحدي، أنا متيقن من هذه الحقيقة.

وبعد عدة أعوام كنت أسير و أنا حاملا الصندوق فوق ظهري، حيث لم يعد شيئا غريبا، بل أصبح جزءا مني لا ينفصل عني ليل نهار، واعتاده الناس و ألفوه أيضا.

قابلت صديقا قديما منذ أيام الطفولة و المدرسة.. ابتهجت به كثيرا عندما علمت أنه صار عالما و أستاذا مرموقا في الفيزياء، و يحمل شهادات من جامعات أجنبية، فعاجلت بإخباره عن الصندوق، رمقني الرجل بتعجب، و قال لي في ثقة العالم بالأمور.

- أنتم لا تقدرون قيمة العلم.

قابلته كما طلب مني عند المعمل في الجامعة، وهناك أخذ كل القياسات المطلوبة لفحص الصندوق و فحص المادة المصنوع منها. القدرة على مقاومة الصدأ هائلة..!! القدرة على تحمل الضغط فائقة....!!! القدرة على مقاومة الأحماض والقلويات مطلقة.....!! القدرة على تحمل الصدمات بلا حدود...!! القدرة على إصابتك بالجنون مؤكدة.... !! و بعد أن فقد صديقي حماسه و انزلق في هاوية اليأس قال لي.

- العلم أمام إرادة الله لا شيء..!!

عدت إلى البيت يراودني سؤال محير، إذا كان الله هو الذي أراد لي أن أجد الصندوق، فلماذا لا يريدني أن أفتحه..؟

لما كل هذا العناء..! لكني لم أيأس و قلت لنفسي، ربما أكون أحسن حالا من الذين لم يجدوا في حياتهم أي صندوق...!!

بينما كنت أسير فوق الكوبري لأعبر النهر، اجتاحني شعور بالضيق من هذا الثقل السخيف على ظهري، أحسست أن الصندوق هو في الحقيقة شيطان ملعون يأبى الخضوع و الانصياع. شعرت بطوفان من الغضب يهدر في داخلي، كانت ثورة عارمة. قررت معها التخلص من هذا العمل الشيطاني، الذي أثقل كاهلي، ألقيت بالصندوق في النهر،وتخلصت من آلامي و أمالي جملة واحدة.

لأول مرة أسير بلا قيود أو أثقال، الآن فقط يحق لي أن أحيا في هدوء و سكينة، مثل قطرات المطر.. وحبات الرمال.. فليذهب الصندوق إلى الجحيم، إلى مثواه الأخير في باطن الأرض، مضيت مبتعدا عن النهر عائدا إلى البيت و أنا فرح نشوان، والعجيب أن الكل سألني عن الصندوق، بل منهم من عاتبني على تركه.

- كيف هان عليك أن تفرط في كنزك بهده السهولة...؟

- أنت رجل مجنون..؟! لا تقدر الأشياء الثمينة

حتى زوجتي قالت.

- بعد عِشرة السنين دي كلها..؟

تعجبت لأمرها، أنها تقيس قيمة الأشياء بمدة المعاشرة، وتخيلت لو أن عفريتا سكن البيت وعاش معنا فترة من الزمن، كانت ستشعر نحوه بالحنين وتحزن على فراقه. ولكن ما حدث لي كان أمرا عجيبا، فقد تبددت الفرحة سريعا، وتسلل إلى إحساس بالسأم، ورغبت عن الشراب والطعام والبيت والحب و العمل وكل شيء، صرت لا أطيق حياتي كلها، هاجمتني الكوابيس بضراوة، ولاحقتني هواجس الموت والعدم، حتى شف جسدي ووهن. تنهدت زوجتي في حسرة،

وأنا أتململ من الضيق والاختناق، وقالت
ـ هده المرة المس مؤكد.. يجب أن نستشير الحكماء.
خرجت من البيت و أنا على يقين بأن الصندوق هو شفائي الوحيد، بحثت عنه في كل مكان، وكأني جسد هائم يبحث عن روحه، ناديته وكلي حسرة وأسف.. أنا الذي ألقيت به بيدي تلك، أنا الذي أضعته .
العجيب أني بالفعل وجدته ثانية، و كانت سعادتي بالعثور عليه مطلقة، أدركت أني لا أحتمل الحياة بدونه و بدون الكنز في داخله، حتى و إن لم أستطع فتحه، أرجوك صندوقي العزيز لا تتركني مرة أخرى، ليتني ما وجدتك و ليتني ما ألقيت بك، أنت عذابي و حبي وأنت سعادتي و همي وأنت يأسي وأملي. لن أتركك أبدا ما حييت ولن أيأس من الكنز القابع في جوفك.
ومرت الأيام كعدها القديم، في كل يوم نسمع رأيا جديدا و نجرب طريقة أخرى، و نرى فكرة مبتكرة نفتح بها الصندوق و نخرج الكنز، العجيب أني أحببته و أحببت عذابه لي.
وفي لحظة سحرية ذات بريق خاص، فتحت عيني لأرى الصندوق و قد حال لونه إلى الأسود وإذا به يفتح تدريجيا، انتفضت من فراشي في لهفة و ذعر، و قلبي يكاد يثب من صدري.. الكنز..!! الكنز يأتيني بلا وسيط و لا شفيع،
نظرت داخله مليا.....!! وأعدت النظر مرات ومرات لعلي أجد شيئا، ولكنها الحقيقة التي لا مناص منها فقد كان الصندوق فارغا.. لم أصدق عيني، فبعثت يدي تعبث و تنقب داخله، فإذا بأناملي تغوص داخل الصندوق و تذوب فيه، سرت في جسدي رعشة باردة، تحملت برودة الذوبان في الصندوق، فأدخلت يدي... ثم ذراعي....ثم رأسي... حتى

دلف جسدي كله داخل الصندوق، و ها أنا و أنت يا رفيقي العزيز أصبحنا شيئا واحدا، و مضيت أستمتع بالبرودة الناعمة.

قصتي

الفكرة الضائعة ..!! عاودني ذلك الإحساس مرة أخرى ولا مفر من الخروج لمعاودة البحث عن فكرة جديدة لقصة أخرى ،أزمعت أمري وهممت بالخروج ، زوجتي ترمقني في استياء ورفض رغم يقينها باستحالة إقصائي عما نويت ، ربما أعود بعد ساعات .. أو أيام ولكني لن أرجع دون الفكرة حتى وإن لم أرجع نهائيا , هي تؤمن بحبي لها ولكنها ترتاب في سلامة عقلي تبتسم مستسلمة مزعنه في نهاية الأمر .لتهمس في رقة :

ـ ارجع بالفكرة فقط ... أخاف عليك من الشاردين والشاردات

القصص والكتابة حياتي منذ عرفت القلم والأوراق ، جيوبي مليئة بالأقلام تزاحم الأوراق المكدسة قديمة وحديثة ، الأفكار تؤرق مضجعي بالليل ومسعاي بالنهار و تتري في رأسي تتناثر وتتقارب , تتربص بي الدوائر أينما كنت ، أقف على شفا جرف هار لا أملك الرجوع ولا أبغ السقوط.

انطلقت بحماسة المستكشف أجوب شوارع المدينة الكبيرة استنهض النائمين وأستحث الخاملين , يصطدم بي السؤال المعتاد .. أين البداية ؟! . يسترعي انتباهي عامل النظافة في الشارع بمكنسته الأبدية ومهنته البدائية قادما من عصور ما قبل التاريخ ، تهلل وجهي واستكانت خواطري الهائمة وارتضيت من المدينة الكبيرة بغنيمتي الصغيرة ، على الفور تمكنت من اصطناع صداقة سريعة تحفها المجاملات والهبات والمنح ، علمت منه ما كان من حياته وما لم يكن ورأيته سعيدا بعالمه القديم خاليا من الآلام التي ظننت أنها تطوقه ويرزح تحت أغلالها ، حتى أنه جعل يستعرض حياته مسديا إليّ الآراء والمواعظ والحكم التي أنجو بها من محن الحياة و شدائدها ، تركته وكلي يقين أني فقدت أول فكرة إلى الأبد ، عاود الرجل عمله وهو موقن بنجاحه في هدايتي إلى طريق الرشاد ، عاودت التجوال في الطرقات والتسكع أمام المحال والفترينات وفي المقاهي وكان القيظ

شديدا وحركة المدينة سريعة مباغتة هربا من الشمس ولفحها .
دائما أغار من أبطال القصص ينعمون بحياة مفعمة بالأحداث والأفعال والرغبات وحياتي جامدة خامدة تحيطها الأوراق والأقلام والجدران ، بينما كنت أصالح حذائي المجهد من سخونة الجو والأتربة على أحد المقاهي واهبا إياه لذلك الشاب الأسمر الذي يقعد تحت مقعدي للاعتناء به وتنظيفه , ظللت أرقب صندوقه السحري يحمل فيه كل شئ وهو يعمل بمهارة عجيبة وفي دقائق كان ماسح الأحذية يجلس بجواري
بجلبابه الواسع وعمامته الكبيرة أمامه كوب العناب ويكركر الشيشة ويمارس جميع السلطات على صبي القهوة كأحسن زبون , ثم تحول من الجد إلى الهذر و بدا غير مبالٍ بالحياة ومن عليها يضحك ملء فمه من أقل كلمة , اعترته نشوة خاصة عندما علم أني كاتب واسترسل يسرد تفاصيل حياته ما أريده وما لا أريد ومغامراته مع الزبائن وأنواع الأحذية والصبغات والفراشات وأصول الصنعة , مدعيا أن الحذاء الأنيق هو دليل صاحبه ، وأطنب في حديثه وهو مزهو وأنا أجامل وأمْتدح حتى أحسست أني تلميذ جاهل يجلس في حضرة أستاذ عليم , تمكنت من إنهاء المقابلة بصعوبة متحججا بكل المعاذير المتاحة وأسرعت بالفرار مع الوعد بلقاء آخر .
قديما أذكر أني كنت بعيد الشأو والطموح أظن الحياة قصة فصولها كتبت من أجلي وقيثارة أداعب أوتارها بقلمي ، كنت أهيم في الشوارع والميادين أتضرع لسماء خواطري أن تتمخض ولو عن فكرة واحدة بلا فائدة .أبحث في الزحام بين البشر وخلف النوافذ و وراء الجدران وفوق الأسطح ، داخل بالوعات الشوارع ، أسفل حصيرة الإسفلت وبين ثنايا الأزقة والعطوف والربوع حيث ينسج القدر خيوط القصص والأساطير في

هدوء وصمت ، وفي طريقي ألفيت دمية صغيرة مطرودة من عالم الأحياء تعاني الإهمال والتجاهل , ألم تكن هذه الدمية في أحد الأيام تتسربل في رداء الحسن والجمال ومحاطة بأبهى النقوش والزخارف والألوان تلثمها الشفاه وتدللها الأيادي حتى أناطت بها إلى هذا المصير المؤلم ، أقدار لا تعرف معنى الخلود ، أعلم دميتي أنك تحملين لي قصة خرساء أراها تراوغني من وراء تلك الصورة المزرية .

تذكرت زوجتي وأنا في الأتوبيس لأنتقل إلى مكان جديد ، كانت دائما تخاف عليّ من الجنون ولكني لا أستطيع الرجوع حتى ولو كان الجنون هو نهايتي ، فجأة راودني خاطر عجيب ، لماذا دائما أبحث عن قصة حزينة بين البؤساء لما لا أكتب قصة سعيدة عن أولئك السعداء ، وتذكرت الفندق والحفلة ، لم تكن ملابسي مناسبة ولكنهم يعلمون عني مسبقا عدم الاعتناء بالأناقة .

الأنوار والموسيقى والجمال والأبهة والعطور الساحرة كل هذا أنساني تعب اليوم ، ثم رأيتها لأول مرة منذ التخرج كم أصبحت جميلة ترفل في ثوب الأنوثة الطاغي وتفيض بوجهها بهجة وحيوية وثراء ، دار حوار الذكريات عن الجامعة والأيام الغابرة ، عندما علمت أني صرت كاتبا و أبحث عن قصة جديدة تجهمت فجأة وامتعض وجهها بالكآبة واعتبرت أن قصتها هي أحق بأن يقرأها العالم أجمع وتتحول إلى أعمال سينمائية ومسرحية ليعرف الجميع كم عانت عندما تزوجت من الرجل الثري الذي لا تحبه وتركت حبيبها رغما عنها ، أمضيت الليل كله وأنا أستمع إلى قصص المحرومين والمظلومين والتعساء , الكل يتسابق ليثبت أن قصته هي الأحق بالكتابة .خرجت من الفندق وأنا مثقل بالهموم والرغبات التعيسة ، ثم انفجرت في الضحك على من يتهموني بالجنون ، لكن أين

تلك القصة الخبيثة تختبئ ..؟.

أطلقت العنان لقدمي تسير بلا هداية أغوص في عباب الأفكار والأماكن والأزمان فأحيانا أشعر أنني مثل دودة تهيم داخل سرداب مظلم في أعمق نقطة في الأرض، وأيضا بفعل سائل سحري أصير عملاقا أطأ الجبال بقدمي وأداعب السحاب.. وحينا يجتاحني إحساس الضآلة وأني حشرة متطفلة تسكن فراء أحد الفئران، تدافعت الأفكار تعدو فيما بينها في ثنايا عقلي في همجية وانفلات حتى أدركت أني أمام السينما التي كثيرا ما حلمت أنها تعرض أحد أعمالي، وبينما أنظر إلى الشخصيات التي كانت مسجونة داخل الورقة البيضاء وقد تحررت لتنبض بالحياة وتتكلم وتتحرك وتشعر وتحب وتكره، لقد صاروا واقعا لا خيال ، وإن كانوا هم واقع فمن أكون أنا ؟! ... لأول مرة يراودني ذلك الخاطر العجيب, لم لا أكون أنا أيضا أعيش داخل قصة وهناك كاتب ما يكتبني..؟ وقلم يخط حياتي يحركني كيفما شاء, أرجوك كاتبي ساعدني كي أعرف من أنا ولا تجعلني مثل صاحب الأوديسة تلهو به الآلهة غير عابئة بأقدار ولا بدستور حياة ، أحسست أني أتمزق بين العوالم والأزمان والأماكن وأوشك على التلاشي بينهم جميعا . توقف أحد المارة يسألني عن طريقه.. سألته في تجهم :

من أرسلك ؟ .. من أي عالم أنت ؟ .. لماذا ترتدي هذه الملابس ؟ ..

من أي زمن أتيت.. ؟! هرب الرجل فزعا ..

أين أنتِ يا زوجتي..؟ الجنون هو الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة ، وفجأة صدرت عني صرخة مدوية و أنا أقول :-

وجدت الفكرة ... وجدتها !

وأسرعت عائدا إلى البيت فرحا لأكتب لأول مرة قصتي.

صاحبة العقد

كعادتي القديمة خرجت وقت السحر أسعى بين دروب مدينتي العتيقة أنقب عن أطياف الماضي الهائمة بين دروبها و أزقتها, ليلية من ليالي الشتاء و قطرات المطر تصطدم متفتتة بالنوافذ والطرقات, أرخيت العنان لعقلي أجوب آفاق السماء, لكن ذلك الإحساس بالعجز عاد يراودني مرة أخرى, لم أستطع أن افعل ما كنت افعله في جده الشباب وأدركت أني واهن الجسد ممزق الإرادة مثقل بالهموم، ظللت أدرأ الحزن عن نفسي حتى بلغت درك اليأس والقنوط, بدت لي نفسي في مرآة الحق مثل ريشة هواء تلهو بها الرياح دون اتجاه أو غاية , بينما أخطو بخطوات ثقيلة مطرق الرأس إذا بطيف رجل يبدو لي من بين الرذاذ قد راعه مني ذلك الحزن المتكاثف على وجهي, لم تكن لي رغبة في الكلام لكنه أخرج من جيبه عقدا وأهداه لي قائلا:-

- أنت أحق به مني ...

ثم أسرع في طريقه, حدث هذا سريعا قبل أن أدرك أن هذا العقد ما هو إلا مجموعة من حجارة لا قيمة لها أضحكني الرجل رغم حزني هذا ما كان ينقص حجاب أو تعويذه نعالج به همومنا.

لكني بدأت اشعر بدوار شديد, تثاقل جسدي حتى كادت قدمي أن تنفذ إلي باطن الأرض, أظلم كل شئ من حولي, ثم تبادر إلي سمعي أصوت صراخ وهتاف و لعنات تقترب نحوي بسرعة مطلقة من ابعد نقطة في الكون.

عاد النور إلي عيني بطيئا مصحوبا بمشاهد وصور لأشياء لا أدركها لأجدني وسط حشد من أناس لا أعرفهم يصرخون ويهتفون, كأن شيئا عظيما قد ألم بهم.

- اللعنة علي الطغاة ..الموت لأعداء الشعب.
نظرت نحو المبني أمامي فإذا هو سجن الحرية الذي تليت عنه الأساطير و الأهوال ، صرح أفاض علي الدنيا ظلما وقهرا , أعمدته من دموع جدرانه من دماء , رأيت حشودا تندفع هادرة وجوههم تطفح دما لا عرقا ، صوت صياحهم يسترسل صداه إلى الأجنة في الأرحام . طوفان من لحم و دم و رثة وأحقاد و نذور يحرق و يحطم كل غالٍ و رخيص. طوفان نور و نار يسحق حواشي الظلم والظلام, وجدت نفسي مقحما في كل هذا دون إرادة مني , أصبح الصدام بين الجنود المحتشدة لتدافع عن السجن والطوفان الثائر لا محالة , دارت رحى الحرب تفتك بكل غالٍ وعزيز , رأيت عجوزا يسقط عند ارتطام قدمه باحدى الأجساد الهالكة مع إطلاق الجنود النار علي الثوار ولكنه ينهض سريعا غير مبالٍ وقد نفض عنه عوارض الشيخوخة ثم انطلق يعدو كطفل غرير .. هدر البنادق يمتزج وصوت الأنين و الجموع الثائرة تندفع داخل ساحة السجن هادرة مارقة ليسقط السجن و يتقوض البنيان , انقضوا رجالا ونساء علي الجدران هدما و تحطيما, رأيتهم ينشدون وهم في زمره الموت عقولهم اختبلها شيطان الظلم.

وقعت عيني على طفل رضيع برفقه امرأة نبيلة الحسن, عيونها كاللؤلؤة في الصدف, تميل علي جدران السجن بكل ما أوتيت من قوة تخدش الجدار الصلب فيصير فتاتا. ثم عكفت على صنع عقد من حجارة السجن, بينما كنت ارقبها وقد سلبتني القلب كما أفقدتني الثورة عقلي وهي تحيط بالعقد جيدها, تتحسسه على صدرها في نشوة غير معهودة ثم أطلقت العنان لجسدها يعلو ويهبط في الهواء بقفزات و وثبات تهلل لها

الطفل أيضا, غير مبالية بالصراع من حولها.
وفجأة انطلقت طلقة نارية بسرعة جنونية من فوهة بندقية مصوبة نحو فراشتي الجميلة, انشعب قلبي من هول الخطب و انسحق ليموت قلب عرف الخوف ومارس اليأس والخضوع, أصابها سهم الغدر المسموم فمزق أحشائها , مادت بها الأرض إلى أن سقطت متأوهة والموت يسعى في إثرها و أمام هول هذا المشهد لم تكن لي بادرة أولى بل هرب العقل وتجمد الجسد إلى لحظات وعندما عاد إليّ الإحساس بالوجود , أسرعت نحوها لأحتضنها و نبض الأنين يعتصر في صدري, أي ذنب اقترفت المرأة لترى عذاب القتل والغدر، وكان مطلق همها أن تهب العقد إلى طفلها.
ظلت تنفض وتشهق بصوت منحور ونظرة العتاب لا تفارقها, عتاب المحبوب إلي حبيبه، نظرة تمرق إلى جسدي و حواسي تحرق و تكوي أضلعي. تخاذلت....؟ نعم تخاذلت.. وعندما أدركت لهفتي عليها. قالت:-
- جرح الجسد يهون على مصاب القلب والروح
انتفض جسدها نفضه أخيرة لتسكن فيها كل حركة, تدفقت أحداث حياتي أمام عيني كشلال يموج ويضطرب ويا لهفة أرضي و سمائي عليها ويا حسرة عمري، علا صوت الأنين في صدري و أصبح نهنهة ثم صراخا ثم عويلا .. أخذت أعبث بالجسد الهالك عله يعود إلي الحياة والطفل يرمقني ببراءة تهيج لوعتي ، ما الشر ما الخير وما الظلم ما الرحمة وما حياتي ما موتي وما كل شئ ...؟؟
أحسست بباعث جديد يجتاح روحي يفيض فوق تلك الترهات النابتة في صحراء نفسي المجدبة, اندفعت نحو الجدار الفاصل أقاتل و أصارع لم أع للخوف صوتا ولا للبنادق هدرا, تمردت علي سلطان الهوى و الهوان, اتقدت في نفسي نخوة لم أعهدها و انتشى قلبي فرحا بالثورة , خرج

الأسرى من قبورهم أبصارهم تهاب نور الحق والعدل , ظللت أقاتل تحت المطر حتى تهاويت فاقد الوعي وإذا بي أفيق من إغماءتي وحولي عدد من المارة قد تملكهم الجزع لأمري , أعربت لهم عن امتناني وخطوت مسرعا عائدا إلي بيتي و قد تملكتني نشوة الباعث الجديد .
أمام البيت أبصرت رجلا متكئا علي الأرض مفترشا الطريق يبدو مهموما بائسا أقبلت عليه وأهديته العقد قائلا له :
- أنت أحق به منى ...
عندما أفاق الرجل إلى رشده و وعي أن العقد من حجارة ليس إلا, رمقني بنظرة تهكم و إزدراء رادا إليّ إهانتي إياه و يا ليته يعلم ولم يزل حبي وهيامي بصاحبة العقد يتقد في قلبي و يشعل جذوة أعادت لريشة الهواء عزها وكيانها المفقود.

بأقصى سرعة

انطلقت صفارة إنذار القطار معلنة بدء التحرك , تواترت أفواج الركاب إلى محطة القيام من مختلف الأجناس والأقطار , فى حركة عشوائية يتخللها النظام مستقلين القطار . تلثم الأقدام أديم الأرض في خفة غير معهودة ، حتى بدا المكان مثل مستعمرة من النمل تتدافع جملة واحدة على فريسة نادرة . البكاء يشوب البسمات في لحظات الفراق والقبلات تلهب القلوب بحرارة الوداع و نظرات و عبرات و تنهدات و بسمات تتفرق بين الحنين واللوعة والسقم , بريق خاص لحياة إنسان هذا العصر صاحب القطار .

في القطار درجات وعربات فاخرة و عادية و سبنسة و تراحيل أيضا, وأضيفت بمحض الصدفة درجات أخرى ابتكرها بعض الركاب , مثل تسطيح فاخر وتسطيح عادة و سبنسة , هذا من روح الدعابة الخاصة بهذا النوع من الركاب , مع انتهاء لحظات الوداع يتبدل سلوك الركاب سريعا حيث يكون الفوز بمقعد وسط هذا الزحام هو هدف أسمى يلاحقه الجميع بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة قبل فوات الأوان ، تبدأ معارك من نوع خاص من الدفع والرفس والنطح و الشقلبة والتسلق مصحوبة في كثير من الأحيان بالشتائم والسباب واللعان , تدافعت أفواج المتسلقين سطح القطار تتسابق للفوز بمواقع التميز في خفة لا مثيل لها إلا بين القرود , متشبثين بظهر القطار كالخفافيش , في النهاية يكون الضابط والحراس هم آخر الركاب في عربة التراحيل ، أما عربة السبنسة فهي موكول إليها حمل كل ما تبقى علي الأرض من أناس و بضائع ودواب وحيوانات لا شئ يضير , يغادر القطار المحطة تاركا من ترك وأخذا من ركب غير مبالٍ بغائب ولا فائت .

تنهيدة ارتياح تند عن الركاب و تنم عن الرضا و بلوغ الأمل عند تحرك القطار , تطمئن النفوس إلى الفوز بالركوب , يقولون أنه أسرع قطار على الإطلاق يصل دائما قبل الميعاد , يسود جو من التفاؤل والاستحسان والاستبشار يضئ الوجوه المجهدة بعد عناء , نستطيع أن نتعرف على السائق في مقدمة القطار من حلته الأنيقة ونظارته السوداء , قسمات الوجه منه تدل علي الهيبة والقوة والمنعة ، يتصاعد الدخان الأبيض في حلقات متموجة من فوهة سيجاره الغليظ ، يمسك عصا القيادة بقوة و حزم و خلفه , يجلس عدد من الرجال حول منضدة مستديرة عليها أوراق وأقلام لا حصر لها .. يرتدون عيينات سميكة حالقين رؤوسهم كأنهم خراف أعدت للذبيح ، منهمكين في القراءة والكتابة والتسجيل والتدوين , يتهامسون فيما بينهم بصوت خفيض تفاديا إزعاج السائق , الذي يبدو أنهم يهابونه إلى أقصى حد, رغم ذلك لا يتورع السائق أن يلتفت إليهم بوجه متجهم بغيض صارخ , لاعنا إياهم في تهكم و ازدراء.

مدعيا أن سرعة القطار بطيئة و ليست كافية , يأمرهم بزيادة السرعة بأي وسيلة ممكنة أو غير ممكنة هذا لا يهم , يلقي عليهم تبعات هذا التأخير وعواقبه الوخيمة و خاصة عليهم . ثم يتهمهم بالغباء والتخاذل والبطء في العمل حتى يصطبغ وجهه باللون الأرجواني و يزفر وينتفض جسده حتى تظن أنه سينفجر وتتناثر أشلاءه ، يقسمون له بكل الأيمان والأديان وهم في حالة من الفزع والذعر مطلقة , خوفا من انفجاره في وجههم مثل قدر الماء المغلي , أن هذه السرعة هي التي تسمح بها القوانين , لكن دون فائدة فهو لا يسمع ولا يري و لا يعطى لكلامهم بالا , يلعن القوانين والنظريات ويهددهم بالعقاب والتنكيل إن لم تكن

وسيلة زيادة السرعة متاحة في أقل وقت ممكن , يعودون إلى أبحاثهم آخذين علي عاتقهم تحدي القوانين و تجاوز النظريات متشبثين بالحياة طامعين في غنيمة النجاح المرجوة فارين من مصير عقاب موعود .

في عربة الديزل وأمام فوهة المحرقة الكبيرة يعمل عمال الفحم بكل همة ونشاط وهم يتفصدون عرقا , بينما يظهر الإجهاد على أجسادهم النحيلة وسواعدهم المعروقة و وجوههم المحترقة , يطعمون فوهة المحرقة وباطنها الملتهب ليل نهار ورغم ذلك هي لا تشبع أبدا دائما تطلب المزيد والمزيد , فوق هذا يصدر إليهم الأمر من السائق بمضاعفة كمية الفحم مرة واحدة , يتلقون الأمر بنظرة باردة رغم سخونة المكان و بلا تفكر أو تدبر, ازدادت سرعتهم إلى الضعف مثل الماكينات التي أمامهم , يبدو أن خوفهم من سائق القطار يفوق خوف حالقي الرؤوس بكثير .

بينما نخطو الخطوات الأولى نحو عربات الدرجة الأولى نشعر بالضوضاء والصخب وقد تحول إلى نغمات موسيقية هادئة تداعب الأذان والقلوب, رائحة الدخان تصير رائحة ورود وأزهار.
صوت العجلات كأنه نقر متقطع هادئ لعصفور يقف خارج النافذة يمس الأذان في حميميه ورقة وديعة, الجمال ينضح على كل شئ، الركاب يرفلون في ثيابهم الأنيقة ، صوت حديثهم هامس حالم وأجمل شئ على الإطلاق صورة الحقول الغناء والوديان والرُبى المترامية وهي تعدو مدبرة عبر النوافذ الزجاجية الشفافة تثير البهجة والصفاء في النفس ، لكن لم يكن هناك من يرى أو يشاهد فالكل مشغول بأموره .

تصدمنا في عربة الركاب العادية أصوات تنبعث من كل شيء ، القطار والركاب والعجلات الكل يتكلم في وقت واحد ، مع اختلاف اللغات والأجناس والأرحام يتحول كل شئ إلى نعيق ونهيق غير مفهوم ولا مسموع ، جموع من الركاب تتماوج و تتلاطم , مع أول لحظة يتبادر إلى ذهننا عربة المحرقة بضجيجها و سخونتها .

ليست عربة السبنسة ببعيدة وهي لا تختلف كثيرا غير أنها بلا مقاعد وبلا نوافذ و تزيد على كل هذا أصوات الحيوانات تنافس بني الإنسان في الإعلان عن وجودها بالنعيق والنهيق والعواء والنقيق ..

عربة التراحيل تلحق بالقطار في المؤخرة ، غير راضية مثل ركابها عن موقعها في القطار , ليس بها أي شئ غير تلك الكومة من الأجساد المتلاصقة من المساجين يقسمون الهواء فيما بينهم على دفعات أما الجلوس في هذه الحجرة فهو حلم بعيد المنال وعليك أن تشكر الحارس لأنه أتاح لك موطئ قدم تقف فيه ، والحجرة الملحقة بالعربة يقبع فيها الضابط وخارجها يجلس الحرس المدججون بالبنادق والهراوات على أتم الاستعداد لأي ردع فوري .

مع زيادة سرعة القطار يسود شعور بالتفاؤل بين الركاب , يمدح البعض السائق وفي الدرجة الأولى ينبعث إحساس النشوة والانسجام كلما زادت السرعة ، فالوقت من ذهب والسرعة أفضل وسيلة لاقتناص الوقت والذهب معا ، تنسحب الحقول مندفعة إلى الوراء حيث التلاشي , تعلو صلصله العجلات و يزداد معها الشعور بالفرح والنشوة تدريجيا بين الركاب .. حتى يقول أحدهم فرحا :

- القطار لا يقف في المحطات الصغيرة .. سنصل قبل الميعاد بساعات بل بأيام

لكن القلق بدأ ينتاب البعض ..

- إلى متى يظل السائق يزيد السرعة ..؟!! أليس هناك حد ...؟

لم يكن ركاب عربة التراحيل من الفرحين بالسرعة ، أجسادهم المتلاصقة تزداد انكماشا و تتلاطم بعضها ببعض و تضيق الأنفاس و تشرأب الرقاب حذر الاختناق .. يعلو تدرجيا صوت الفرحين والمهللين بنشوة السرعة ويزداد قلق القلقين والخائفين

أصبح عمال المحرقة كالماكينات يعملون بصورة آلية حتى العرق لم يعد له وجود و ازدادت نظرتهم الباردة تجمدا , سائق القطار هو أكثر الفرحين بالسرعة فالكل يمدحه و يثني عليه و يشاد بقدرته الغير مسبوقة بين أقرانه منذ بدء التاريخ . ليعاود صراخه في أصحاب الرؤوس الحليقة بوجهه الأرجواني المتجهم مطالبا بزيادة السرعة أكثر وأكثر,

لم يمض وقتا طويلا حتى عاودت السرعة ازديادها و تحولت نشوة الفرحين إلى شعور غير مفهوم من هستريا الضحك المتواصل ثم تحول الضحك إلى رقص وغناء و قفز و شقلبة ، أما الخائفون ازدادوا خوفا يتململون في مقاعدهم يطقطقون الأصابع ويتشبثون بمقاعدهم كأنهم في انتظار كارثة مروعة وشيكة الحدوث لشيء مجهول تسوء عواقبه

فجأة ينهض رجل وقد نفض عن نفسه الخوف مناديا :

- أوقفوا القطار ! ... أوقفوا القطار !

يغضب الفرحون وتثور ثائرتهم على الرجل و يندفعون نحوه يكيلون له الضربات واللعنات ومع كل ضربة و لطمه تتأصل في الخائفين دعائم الخوف ويغوص كل منهم في مقعده متمنيا أن يذوب في مسامه حتى يصيران جسدا واحدا ولكن شيئا لم يوقف الرجل عن ندائه المقدس .

فما كان منهم إلا أنهم ألقوا به من القطار ، ساد بعدها الصمت للحظات ثم عاد كل شئ إلى طبيعته ، الراقصون إلى رقصهم والخائفون إلى خوفهم, وكان الاحتفال بالتخلص من الرجل ذو الوجه القبيح هو أجمل شئ على الإطلاق بين الفرحين.

القطار يعبر الجسر الحديدي .. يقتل أناسا كانوا يعبرون الطريق, تتناثر الأشلاء الممزقة والدماء على زجاج النوافذ ، يجتاح الصمت الحزين جنبات القطار من هول الحادث البغيض ، لكن سرعان ما عاد الضاحكون إلى ضحكهم مرة أخرى وتحول الخائفون إلى أصنام من الجليد تسكن القطب الشمالي . لكن الرجل الذي ألقوا به من القطار يعاود الظهور ثانية وهو مازال يردد في إصرار عجيب

- أوقفوا القطار ... أوقفوا القطار.

يندفعون نحوه مرة أخرى و يقذفون به من القطار, لكنه يعاود الظهور مرة ثالثة و رابعة , في كل مرة يقذفون به من القطار و يصرخون ضحكا على ذلك الرجل الذي لا يموت أبدا .

الحيوانات في عربة السبنسة أصابها فزع وخوف لا مبرر له غير تلك السرعة المخيفة وثارت على الدخلاء من البشر في عربتها الخاصة ودارت معركة شرسة بين الطرفين وتساقط القتلى من كلا الجانبين, لم تكن عربة التراحيل أسعد حالا من السبنسة فقد استبد القلق والاختناق بالمساجين إلى حد الثورة, حتى تهشم الباب العازل واندفعت جموع المساجين ثائرة متمردة معلنة العصيان، كان هذا كافيا لقوات الحرس لاستخدام جميع الوسائل المتاحة وغير المشروعة في إخماد الثورة، رغم ارتفاع عدد القتلى بين المساجين إلا أنهم يزدادون ثورة وهياجا بلا مبرر, يتفاقم معها وحشية و قسوة الحراس دون تحكم ولا قيد .

يعاود السائق صراخه في حالقي الرؤوس مطالبا بالسرعة، العمال الآليين يسابقون المحرقة التي تلتهم كل شيء ولا تبقي ولا تذر، إذ بأحد العمال يترك معوله ثم يلقى نظرة صامتة علي المكان وزملائه الذين لم يتوقفوا لحظة واحدة و قد عزم أمره على شئ ما, ثم اتجه مباشرة نحو فوهة المحرقة ثم ألقى بنفسه في هدوء, لم تصدر أي هنة تدل على أن شيئا غريبا قد حدث.

يتحطم الجسر الحديدي تتلاشى الحقول والخمائل والربي على جانبي القطار، تتهشم القطبان الحديدية، تتطاير الخفافيش المتشبثة بسطح القطار ، الضحك أصبح جنونا مطبقا على الأرواح والخوف يحيل العروق والأمشاج إلى حجارة و رماد .. يسقط الرجل المنادي بإيقاف القطار هذه المرة صريعا إلى الأبد تحت العجلات .

تلاشت كل الأصوات إلا عن صوت صفير حاد يصم الآذان .

تساوت كل الصور خلف غلالة من ضوء مبهر وهاج ، القطار يقترب من محطة الوصول .

لا توجد وسيلة لإبطاءه حتى القوانين والنظريات فقدت قدراتها السحرية إلي الأبد . يندفع القطار بأقصى سرعة محطما كل الإشارات المحذرة , يصطدم بمحطة الوصول و يحطمها و يدمر كل شئ أمامه , ينطلق مخترقا الفضاء مثل شهاب مضيء , ثم تحول الضحك والخوف معا إلى صوت أنين مكتوم ابتلعه الكون الهادئ في سكون وبطء شديدين.

المطاردة

لا أذكر متى حدث هذا و لماذا حدث ....!! هل أخطأت أم أجبرت على الخطأ...؟؟ في ذلك اليوم كنت مجتمعا مع الطلبة في ساحة الكلية بعد انتهاء المحاضرة نتحاور في كل ما يجول بخاطرهم من قضايا وآراء كعادتي معهم وبالأخص في تلك الايام العصيبة التي تعيشها البلاد من ثورات و قلاقل وآلاف المعتقلين وأعداء يتربصون في الخفاء وكساد و فقر , الحقيقة أني دائما أتحدث عن نظريات علمية فقط دون إلقاء الجرم على جهة خاصة خوفا من سوء العاقبة .

أقبل أحد العاملين يخبرني أن ضابطا من قوات الأمن يطلب مقابلتي لأمر هام انزعجت بشدة وأوجست خيفة وأحسست بنذير شؤم ، هذه أول مرة تحدث منذ كنت طالبا في هذه الكلية ,عندما اعتقلت في أحدى المظاهرات , حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف معنى كلمة خوف , لكني عندما لقيت من العقاب والتنكيل والإهانة ما يكفي للتكفير عن ذنوبي الماضية و المقبلة بقية عمري , كأني أتيت بما لم يأت به الشيطان في حاثة العصيان .

قوة باطشة تفوق الظنون والإرادة عصفت بكياني وكرامتي ومنذ ذلك الوقت وأنا أعيش بين أبحاثي و كتبي و محاضراتي أتحدث كثيرا ولكني لا أفعل شيئا ، كنت أقف عند الخطوط الحمراء التي تعلمتها في لحظات عذابي غائب العقل عاجز الإرادة , أفقت من شرودي على العامل وهو ينتظر مني ردا ، اعتذرت للطلبة و تنحيت جانبا فقد اجتاحني إحساس جارف بالقلق والتوتر , أخذت أنقب في ذاكرتي عن خطأ أو كلمة بدرت مني دون قصد اغضبتهم ، لكني أتحدث كل يوم أمام آلاف البشر .

ربما وشى بى أحد الحاقدين ، لكنهم حتى يتيقنوا من كذب الوشاية و من براءتى أكون قد لقيت من العذاب ما لا يستباح به للحيوان .
تتلاطم في عقلي ذكريات الحاث القديم مفجرة فى نفسي هواجس الخوف الدفينة ، رغبة لا إرادية تحثني على الهرب ، الصدمة الأولى خرجت منها بأعجوبة , رجعت إلى الحياة مبتور الإرادة و الكرامة , لن أقبل هذه المرة إن يسلبوني ما تبقى من حياتي , سارعت مبتعدا و كلما خطوت خطوة ازددت خوفا و تضاعفت رغبتى فى العدو حتى خرجت من الكلية، لم أرجع إلى البيت أعلم أنهم فى كل مكان تشعر بوجودهم حتى فى حجرة نومك , انتشر الخبر فى الجامعة , أصبح حديث الساعة بين كل الطوائف و اضطررت إلى الاختفاء نهائيا إلى أن تتضح الحقيقة .
سارع المفسرون و النمامون والحاقدون فى نسج الافتراءات و الافتراضات, حتى قيل أنى متهم ببيع الامتحانات , قال آخر أنى أتاجر فى الآثار لأني كثيرا ما أسافر إلى الخارج ، وأدعى آخرون أنى عضو فى تنظيم إرهابي , إلي أن تحولت في نهاية الامر إلي جاسوس لإحدى الدول , وفعلت الأقاويل والمزاعم فى الخطب فعلها ، حتى أصبحت متصدرا قائمة المطلوبين عند كل الأجهزة الأمنية , و تم إعداد قوة مدربة و مجهزة بالأسلحة والمعدات والكلاب للإيقاع بى فى أسرع وقت ، تناولت الصحف القضية بشغف شديد وأبدع المبدعون وتوالت المقالات حتى أصبحت الأقاويل والمزاعم حقيقة لا جدال فيها ، كل هذا وأنا لا أدرى ما يدور من حولى حتى تلك اللحظة التى أطلعت فيها على الصحف ، صعقني الخبر وكدت أن أغوص فى الأرض من هول الصدمة والخوف , حتى كاد عقلي أن يحترق من الفزع ..أهرب خوفا من العقاب والتنكيل لأواجه عقوبة الإعدام والتقطيع ..؟!!

ازداد الأمر تعقيدا وصار الخوف عملاقا لا أجرأ على تجاهله , الهرب هو أملى الوحيد من هذا المصير المشؤم , اختبأت فى حجرة صغيرة فوق أحد البيوت القديمة ورغم قسوة الحياة وألمها إلا أنى كنت أشعر بالأمان , اقتصر طعامي على الخبز والماء ثم أغوص بقية اليوم فى خواطري المخيفة حتى يكل عقلي ويستسلم للنوم , لكن أهل البيت ارتابوا فى أمري وأبلغوا الشرطة التى حاصرت المكان وأطلقت الكلاب صوت نباحها، لكنى تمكنت من الهرب بأعجوبة عبر الأسطح المتلاصقة وأدركت أن الخوف يهب صاحبه قوة خاصة خارقة أحسست بجسدي يطير فى الهواء و قدمى تسابق الريح وتسقط النظارة إلى الأبد و تتحطم تحت أقدامى اللاهثة، إذا بى أقتحم حجرة نوم لرجل وامرأة فى الفراش و لكن المرأة لم تصرخ و لم يصدر عنها بادرة صوت أما الرجل أسرع بمغادرة البيت فى هدوء , تمت المقايضة و تعهدت المرأة العانس بحمايتي فى مقابل كل شىء منى ، بعد بضعة أيام تمكنت من معرفة سبب عدم زواجها حتي الآن وكل شيء عن حياتها , هى فى الحقيقة نصف إمرأة و نصف رجل لا تظهر أنوثتها إلا فى أوان الشهوة و دون ذلك فهى مثل الرجال في كل شيء بالإضافة إلى بعض الملامح التى تؤيد هذا الرأى .

كانت تسخر من جهلي بأمور البيت التى أصبحت مسئولا عنها أثناء عملها وكثيرا ما أحسست بالمهانة من سلاطة لسانها ولكن خوفي كان يهون لى كل شىء فى إحدى الليالي التى كنت أبغضها سألتني عن حقيقة ما كتب عنى فى الصحف فأخبرتها الحقيقة ولكنها لم تقتنع بأسباب هروبي و كثيرا ما كانت تضيق بالحديث معى إلا أنها يطيب لها القرب منى , ومرة أخرى أفشى الوشاة سر المخبأ ،أنطلق صوت الكلاب يهدر

ويرعد، أسرعت بالفرار دون كلمة وداع أو اعتذار ، هربت من المدينة كلها إلى الخلاء ،عملت فى موقع إنشائي بين العمال والبنائين والنجارين أقوم بإعداد الأطعمة والمشروبات وأطلقت لحيتى وتنكرت فى ملابس العمال ، أحبني الجميع حتى نسيت معهم أمر الكلاب والمطاردة ، لكن الحزن والأسى ظلا ينالان منى نصيبهما في كل يوم حتى شف جسدي ورق وأصابني الوهن و الإعياء ,أصبح النسيان هو أمل أصبوا إليه كل لحظة , سقطت فى يدى قطعة حشيش تجلب السعادة والحظ أيضا ، فرحت بأثرها الفاعل فى عقلي وجسدي , تلاشى الخوف وتبطل الألم , تتضاءل فى صحبته الهموم والأحزان ، بينما كنت فى أشد حالات السعادة والانسجام مع رفقاء الليل , إذ بى أذكر أخي الأكبر الذى مات فى الحرب لأنة أبى الاستسلام لهوان الذل والأسر , و أخي الأصغر كان صاحب قضية لا يهاب دونها الموت حتى عذبوه و قهروا عقله ، أما أنا فقد وصلت إلى نفس النتيجة ولكن لأني جبان ، اجتاحتني موجة من البكاء والعويل وأصيب جسدى بموجة عارمة من الانقباضات وتشنجات إلى ما يشبه الصرع , تنتهى الليلة بذلك الحادث المفزع ، بينما تمضي الأيام ليلها كنهارها .

إذا بصوت الكلاب يعلو مرة أخرى , لم أتوقف لحظة بل انطلقت أعدو بكل ما أوتيت من قوة ، حتي تمكنت من الهرب مرة أخري بفضل قوة الخوف الخارقة , فى هدأه الليل تسللت إلى بيتى وجسدي يرتعد من الوهن والبرودة لأرى زوجتي لأول مرة منذ سنوات , تجلس وحيدة بجوار المدفأة , كأنما تترقب وصولي ، لم تعرفني فى بداية الأمر وأنكرت وجودي ، كم هى جميلة رقيقة فى عينها رأيت كل الآمال والمعاني

المفقودة، تهمس بنظرة عتاب يائسة , نظرة حنونة تمس أوتار القلب الخامد المتجمد تحت جبال الثلج , لكن الحقيقة أنى لم أعد أشعر أو أحس صرت معطل الوجدان والحواس ، أخذت تذكرني بعهد الحب والكلية و بنجاحي وكتبي وأولادي و تلاميذي و أن ما حدث ماهو إلا وهم فى عقلى أنا وحدي لقد انتهت الحرب والثورة و الاعتقال و ساد السلام و الخير منذ زمن بعيد, فلم الهرب...؟!! لكنها أدركت فى نهاية الأمر أن موتى أصبح حقيقة

وأيقنت أنى لن أعود أبدا .

بينما كنت أجلس أمامها خامد الجسد مثل خرقة باليه أذلها القدر ، إذا بالكلاب تعاود النباح مرة أخرى , تدب الحياة فى قدمي وحدها وأفر هاربا بلا عقل أو إرادة و صراخ زوجتي ورجاؤها يقف عند حافة أذني لا يصل إلى عقلى المفزوع , اختبأت بالكلية ثم تسللت إلي حجرتي الخاصة, لأجد ما لم يخطر لى على بال , لقد تحولت الحجرة إلى قاعة تاريخية يتوسطها تمثال نصفى لى ومعه أشهر عباراتى وكتاباتي وجوائزي , أيضا نهايتي واختفائي الغامض ، الحقيقة عرفت طريقها من دونى , لكن أكثر شيء ألمنى تلك العبارات والتعليقات المدونة بأيدي الطلبة و دونما أشعر سقطت قطرة دموع فوق الكلمات الرقيقة , أغلقت عليها الكتاب آملا أن تعبر عن كل ما أردت أن أقوله ، لكن الكلاب تأبى إلا عذابي و تعاود النباح بلا رحمة ..لم أعرف أنى أعدو إلا عندما أدركني ذلك الألم القاتل يمزق صدري و يخنق أنفاسي , لم أعد أقوى على العدو و الكلاب تقترب ... و تقترب... حتى سقطت مستسلما مهزوما , لأول مرة تحاصرني الكلاب فرحة مهللة ومن خلفها الجنود والضباط , ليسألني الضابط وهو يوجه ضوء كشافه إلى وجهي

- من أنت ؟

- أنا الدكتور على

- لماذا تعدو...؟!!

- لأنكم تطاردونني

نحن لا نطاردك , الكلاب تعدوا خلفك لأنك تخاف منها , لكنى أبيت أن أنصت لصوت الحقيقة التي جاءت بعد الأوان ذلك العدل الذى تأخر رفضت الإقرار بالخطأ ، لست أنا المخطئ وحدي , نهضت مرة أخرى لأعدو متهما الضابط بالجنون وأبيت أن أعيش بلا خوف , بإشارة من الضابط توقف فريق المطاردة والكلاب عن اللحاق بى ثم أخرج جهاز الإرسال قائلا

- إلى جميع الوحدات بلاغ كاذب إنتهت المطـــــــاردة .

الـــــــــوبـــاء

طالعتنا الصحف اليومية والإذاعات بالأخبار المخيفة والمروعة، وتوالت البيانات الرسمية والمانشتات الحمراء العريضة في الصفحات الأولى، تستنفر وتحذر من الخطر الداهم، لأول مرة منذ سنوات يعود الوباء القاتل من جديد ليبعث في القلوب ذكريات قديمة لتاريخ هذا الوباء الدامي وعداءه الأزلي للجنس البشري، رغم إعلان العلماء رسميا انحسار المرض نهائيا .

لكنها الحقيقة ألجمت كل الادعاءات وانزعج لها العالم كله من أقصاه إلى أدناه، عاد الوباء في صورة جديدة و برداء مختلف لا يهاب المضادات ولا تجدي معه التطعيمات والأمصال.

أعراضه مفاجئة خفية, يتسلل إلي فريسته في صمت و سرعة فائقة لينشر الفزع والرعب والعشوائية في كل شيء، وتجسدت الكارثة في معدلات الوفيات المتزايدة وانتشر بين الناس عوارض الخوف المميت.

حتى العشاق هجروا مضاجعهم وصار لون القمر باهتا يعلوه الغبار، ملايين الضحايا والمنكوبين يحصدهم الوباء البغيض بلا رحمة أو شفقة، ينتزع الرضيع من أحضان أمه و يهلك الشاب ويذر الكهل، انتشرت التعليمات واللافتات المحذرة والتوجيهات الحازمة, أضرمت النيران في جثث الضحايا وأحيانا في الأحياء منهم , أب مقهور يقتل طفله المصاب حتى لا يقتله الآخرون، جماعة تهاجم منزلا لأسرة كبيرة لاعتقادهم أصابتهم بالوباء وتشعل به النيران حتى احترق على من فيه ،

يهرب الزوج من عروسه الحسناء في ليلة الزفاف ليعيش في الخلاء, تلاحقت أفواج المهاجرين من سكان المدن إلى الصحراء للاحتماء بها, يعتزل اللصوص السرقة مخافة إغضاب الإله والمعاقبة بالوباء, ينسى الأعداء في كل مكان أسباب العداء. تُغلق المدارس والجامعات ويتحرر

السجناء، وتعم الفوضى كل أنحاء المعمورة ، يقف العالم كله وقفة رجل واحد, ينعقد مجلس قمة الأرض ويحضره كل رؤساء العالم بمشاركة العلماء والمستشارين من كل حدب وصوب, رغم اختلاف المعتقدات واللغات والأديان، إلا أن وحدة الهدف أذابت كل الفوارق وتعانق الجميع في حميميه وتراحم إنساني يفوق الخيال.

تتابعت الآراء والاقتراحات والاحتمالات الأخرى المعارضة وتنازعوا أمرهم فيما بينهم, في أمر ذلك الوباء الغامض المخيف الذي لا يطيع أمرا ولا يصغي لإرادة أحد، يصيب الجسد فيغير لون الجلد كله والوجه، ثم يزداد نبض القلب ويهبط ويعبث بالعين حتى يقضي عليها نهائيا ثم يسوق الجسد الأعمى نحو الموت المجهز في ستة أيام.

تمضي الساعات والأيام بطيئة ثقيلة ويجتمع المجلس وينفض لمرات ومرات ولا يبقى غير الفشل والتقارير تتابع تحمل في طياتها من الإحصائيات والأرقام ما يزيد من خطورة الأمر. ولكن أحد العلماء يفاجئ المجلس بإعلانه التوصل لحقيقة من شأنها القضاء على الوباء نهائيا... ولكنه أحجم قليلا في أول الأمر. و أخيرا قال:

- بعد أبحاث دقيقة توصلت إلى أن الميكروب ينتقل وينتشر بواسطة العملاتالمالية... هي وسيلته الوحيدة... وأنصح بصفتي العلمية إلى سرعة التخلص من جميع أنواع العملات المالية في كل مكان... وهذا هو الأمل الوحيد لنجاة الجنس البشرى

ساد التجهم والإنكار على وجوه الحاضرين ليقول أحدهم

- هل نستطيع أن نحيا بدون مال..؟!

- الحياة بدون مال أشر منها مع الوباء.....!!

- المال هو الحياة ذاتها ..

انقسمت القاعة وتعارضت الرغبات وتعالت الأصوات المنددة بالاقتراح والرافضة وأعيدت الأبحاث مرات ومرات حتى أجمع العلماء على رأي واحد لا جدال بعده، لا مفر من إقرار الحقيقة و أباده كل الأموال، وأمام كل تلك الحقائق العلمية اتخذ المجلس قراره بالإجماع وأعلن رسميا نهاية عصر المال و إحراق جميع العملات المالية.

لكن ما حدث كان مروعا. فقد قوبل القرار بالإحجام والإعراض والاتهام بالجنون والمؤامرة من قبل أصحاب المال وعشاقه، واشتعلت المدن والشوارع والميادين بالمتظاهرين والثائرين على القرار الظالم الغادر، تحت زعامة الماليين واجتمع أغنياء الأرض وأحباء المال وأنصاره.. لبحث الطريقة المناسبة لحماية عرش المال وصولجان ملكه وسطوته، من أولئك الحاقدين المتآمرين عليه بزعم القضاء على الوباء،

واحتدم الأمر إلى أن وصل إلى حتمية الصدام بين الحكوميين والماليين، واحتشدت القوات المتحفزة من الطرفين وتأججت نار الحرب تطوف مشارق الأرض و مغاربها، وأغدق زعماء المقاومة المالية بالمال علي المقاتلين لحثهم على الصمود، تدفقت جحافل الجنيهات والدولارات

والدينارات عبر الخزائن وهي محملة بالأسلحة والذخائر الفتاكة تقتل وتمزق بجنون، تدافع عن حقها في الحياة الكريمة الناعمة.

وبأمرها قامت جيوش وأساطيل ودقت طبول وأحرقت مدارس ومعابد ومساجد ومبادئ حياة، وسالت أنهار دماء ودموع وتعددت أسباب الموت، إما بالوباء وإما في حرب الماليين, حتى انتصرت القوات الحكومية وهُزم الماليين واحتشدت أكوام العملات المهزومة في الميادين لحرقها, ويحكى الرواة في أنحاء العالم عن ما حدث في ذلك اليوم , حيث ظل أحد الماليين يلتهم أمواله حتى لا يأخذوها منه إلى أن مات، وألقى آخر بنفسه

في الحريق الذي أضرم في الأموال, ورجل آخر وجدوه وقد دفن نفسه في قبو تحت الأرض مع أمواله, و في النهاية نجحت الخطة وتم محاصرة الوباء والقضاء عليه. لتطالعنا الصحف بتلك الإحصائية التي تخبرنا أن عدد ضحايا حرب الماليين يفوق أضعاف ضحايا الوباء.

العِقـــــــاب

مع بدء السنة الدراسية الجديدة, لأول مرة في حياتي أنتقل من قريتي الصغيرة إلى قلب المدينة لألتحق بالمدرسة الإعدادية التي رحبت بانضمامي إليها لتفوقي الدراسي .

اجتاحني إحساس السعادة والرهبة في اليوم الأول وأنا برفقة أبي، عندما تركني ازداد شعوري بالغربة والضآلة، أيقنت حقيقة ملابسي الرخيصة وحقيبتي رغم أنها جديدة إلا أنها تبدو قليلة الشأن أمام أقرانها، المدرسة أنيقة كبيرة عدد فصولها يفوق مدرسة القرية بعشر مرات, تزدان بالأقوال المأثورة والمواعظ ورسومات زيتية لأشهر العلماء والمفكرين، تسابق الأولاد في الفصل للفوز بالمقاعد الأولى والقانون هنا مع الأسرع والأقوى. كانت هذه أول ميزة أحصل عليها, أخذت مكاني المفضل في أول صف، لكن طالبا آخر ظهر فجأة متأخرا عن الجميع, بعد أن امتلأت كل المقاعد ثم ألقى نظرة سريعة على المقاعد الأمامية, ليتوقف أمامي دون الجميع مدعيا أن هذا المقعد يخصه, يتحدث بثقة مفرطة و كأنه يحمل وثيقة ملكية للمقعد، لكني رفضت التنازل عن المقعد لأسباب كثيرة أهمها أن مصيري سوف يكون هو المقعد الأخير وتصبح الخسارة فادحة. لكنه زاد من إصراره و تعنته و بدا عليه التعجب لرفضي الإذعان لأمره، كأنه أمر واجب التنفيذ حتى أقبل المدرس, الذي أصدر حكمه الفاصل في النزاع لأجدني أجلس في آخر مقعد بعد أن تعلل الأستاذ أن هذا المقعد محجوز لهذا الطالب من قبل، أخفيت غيظي واستسلمت لقضائي, لكن ما زاد من حنقي وألمي أن ذلك الطالب ظل ينظر نحوي في شماتة وازدراء حتى ألقى بي على حافة البكاء، أنا الذي كنت في قريتي من الأوائل المكرمين أستحوذ على حب الجميع وتقديرهم، أما هذا العالم الجديد الذي لا أعرفه ولا يعرفني يحكم علي بالخذلان والتراجع إلى آخر

الصف وبأرخص الملابس و بأردأ الحقائب, ليتني أعود إلى القرية.. كرهت المدرسة من أول يوم.

لكن أبي وأمي ساءهما قولي ولم يقبلا حجتي, رجعت إلى المدرسة هذه المرة ممتطيا جواد الشجاعة والإقدام يحتويني إصرار قاطع أن أقتص لنفسي من هذا الولد المتأنق المزهو بجماله وخيلاءه, عاودت الجلوس في المقعد الأمامي.. متشبثا بحقي متحفزا للمعركة مستلهما الشجاعة من قصص الطفولة التي كانت تمتدح أبطال المعارك والفروسية والشهامة.. شجاعة عنترة وقوة أبو زيد الهلالي, وكنه للمرة الثانية ينهرني ويأمرني بمغادرة المقعد بكل صلف وكبرياء, رفضت أيضا بكل عند وتحدي, تبادلنا الشتائم واللكمات و الركلات ليسقط مستسلما مهزوما بلا مقاومة بين يدي, إذ بالأستاذ يدخل الفصل ويرفعني من فوقه ويلقي بي بعيدا ثم ينهضه ويسترضيه...ثم يشهر عصاه عاليا و ينهال بها على جسدي ضربا بكل ما أوتي من قوة .

انسحقت نشوة النصر أمام ما لقيته من إهانة وعقاب, لم يكتف الأستاذ بما حاق بي من عقاب بل اقتادني إلى حجرة ناظر المدرسة، أخبره بجريمتي النكراء.. رمقني الناظر باحتقار كأنما ينظر إلى طفل مشرد طريد هارب من الإصلاحية.

نظرة لم تفارق مخيلتي طيلة العمر . ثم صفعني على وجهي قائلا:

- أنت مفصول... لا ترجع إلا مع ولي أمرك.

ثم استوقفني مرة أخرى متسائلا

- أبوك شغال إيه ؟

- فلاح

خرجت من المدرسة مطرودا,أحمل على كاهلي ذنوب البشر أجمعين وغريمي المنتصر يزفني حتى نهاية الشارع بالشماتة والسخرية وقد انضم إليه بقية الطلبة، أحسست بآلام الضرب تظهر بارزة على جسدي خطوطا حمراء وزرقاء, ظللت أهيم في الطرقات بلا هدف وأنا أبكي بصوت مسموع, لا أملك لنفسي أمرا ..

تحول الحلم الجميل إلى كابوس مروع، لم أشعر بالانتماء لهذا العالم , كأني جرو صغير جاء ليحيا بين قطيع من الغزلان معتقدا أنه يشبههم , لكنني قررت أن أثأر منهم جميعا . اتجهت إلى قسم الشرطة وطلبت المأمور, في القرية يقولون أن المأمور يعرف كل شيء ويقدر علي كل شيء وأنه هو سيف الحق والقانون فى هذه البلدة , استمع الضابط إلى حكايتي في اهتمام بالغ أسعدني ، لكنه عندما اصطحبني إلى مكتب المأمور ، كانت المفاجئة المروعة في انتظاري , وجدت غريمي مرة أخرى يجلس في حضرة المأمور يداعبه ويلاطفه , و إذا به يتجهم عند رؤيتي و يصرخ بي .

- أنت يا قذر تعتدي على ابني...!!

تراجعت مصطدما بالجدران.. أبغي أن أنفذ من مسامه وجزيئاته أو أذوب وأتلاشى لكنه لم يحدث, رأيت نظرة الاحتقار تلدغني مرة أخرى، تسري في كل كياني تحطمه وتفتته وتذروه غبارا, قلت مستسلما مذعنا.

- أنا لم أقصد.. أنه هو الذي..

لم يسمح لي حتى بالاعتذار, أخذ يكيل لي الضربات فوق جسدي بعصاه وعلى رأسي, وأنا أعتذر واسترضيه واطلب العفو والرحمة, وأعد ألا يتكرر هذا مرة أخرى, زحفت على الأرض محاولا تفادي الضربات بلا فائدة وفي النهاية تسلمني الصول عبد التواب لكي يصطحبني إلى عمدة القرية

ليعيد تربيتي من جديد .

كان الصول عبد التواب يتألم من أجلي, لكنه ظل صامتا, يضغط بيده على يدي الصغيرة يحثني أن أكف عن البكاء وأن أتماسك.. يهز رأسه في أسي قائلا..

- يا خسارة يا أولاد .

عندما بدا لنا دوار العمدة من بعيد والذي كان في انتظارنا, أمسك بتلابيبي وأخذ يلهب جسدي بالضربات و اللعنات لأبي و أمي و أجدادي و يسب أصلي النجس و يقول

- ألم تجد غير ابن المأمور يا ابن الكلب.

تسلمني الغفير حمودة بالإضافة إلى الصول عبد التواب ليصحباني إلى الدار وقد أصبحت مثل الخرقة البالية لا تحملاني قدماي وجسدي يصطخب بالألم، الدموع قد نضبت في عيني مخلفة الاحمرار والانكسار, بينما الغفير حمودة يمسك بي من قفاي كالمجرمين حتى لا أفر منه و هو يقول

- عيال معجونين بمية عفاريت.

تلقت أمي الصدمة الأولى و أذهلها وجهي المكفهر فأخذتني في حضنها ثم أجهشت في البكاء، لكن أبي أمام الصول والغفير قرر أن يربيني من جديد كما أمر المأمور والعمدة على جريمتي التي لم يتحقق منها بعد, انهال فوقي ضربا و شبحا وتقطيعا حتى تيقن الرجلان من نجاح المهمة وتحقق المراد, كانت ليلة ليلاء على الدار كلها، زارنا الطبيب الذي أصر على إبلاغ الشرطة لاشتباهه في وقوع جريمة اعتداء متعمدة, لكن أبي أخبره أنه هو الذي عاقبني لأني ارتكبت جريمة سرقة.

في اليوم التالي زارنا الصول عبد التواب, الذي أخبر أبي حقيقة الأمر, ظل أبي صامتا مذويا.
ينظر إليّ من بعيد وأنا طريح الفراش، خشيت أن يغتر مثلي و تتملكه روح البطولة القديمة و يندفع خلف أبطال الملاحم والحكايات.
مع مقدم الليل أيقظني صوت أمي و هي تولول و تلطم وجهها, خوفا على أبي الذي حمل البندقية و خرج من أجل أن يقتل المأمور, انتفضت القرية كلها من ثباتها على الخبر المفزع المنذر بالفاجعة و تجمعت خلف أبي الذي مضي في طريقه بعزم لا يلين، لحق بهم العمدة وشيخ البلد والأعيان, أي كارثة ستحل بالقرية كلها عندما يقتل واحد منهم المأمور.
اضطر العمدة إلى إلقاء القبض عليه و إيداعه السجن، لكن أبي ظل على عزمه و توعد بقتل المأمور مهما طال الزمان، اجتمع كبراء القرية يتشاورون فيما بينهم, يحصرون الخسائر والمصائب التي سوف تلحق بكل فرد بالقرية. العمدة ومنصبه المهدد و شيخ البلد و تجارته والإتاوات والافتراءات والجرائم الخفية, هذا بالإضافة إلي انتقام الحكومة لرجلها الأول.
لم يبق أمامهم غير حل واحد هو التخلص من أبي و لو بقتله, لكن القرية كلها تقف وراءه.. إذا هي الدية لا مناص, ظل العمدة ورجاله يساومون أبي حتى رضي.
وعاد أبي إلى الدار محملا بالأسلاب ما يفوق الخيال والأجمل من كل هذا أن المأمور كان أجبن مما توقع الجميع ، فعندما علم بأن أبي توعد

بالتربص به لقتله, انتقل من البلدة هو وأسرته و رحل نهائيا.

حرنکش

لم يكن إمام بائع الحرنكش فى يوم من الأيام زعيم ثورة أو ممن يهتمون بالسياسة , هو رجل بسيط يحلم بتربية أولاده والعيش فى سلام , له عالمه الخاص الذى أنشأه لنفسه بعد أن ترك قريته فى صعيد مصر وهاجر إلى القاهرة وهو شاب حيث كان يحلم بتحقيق ما يطمح إليه من ثروة وجاه , ولكن ما حدث أنه لم يحقق شيئا من ذلك سوى عربة يجرها يبيع عليها الحرنكش طيلة اليوم ثم يعود إلى بيته راضيا بما قسم له من رزق , ومع الوقت اقتنع إمام أن هذه هي حياته وهذا هو قدره ورضي وقنع بذلك دون مضض وتآكلت الأحلام والآمال الكبرى لتصبح محصورة فى البقاء على قيد الحياة فقط , وانسحب إمام من المعركة فى هدوء لا يبغى غير السلامة له ولأولاده , وكان إمام مؤمنا بالله وأنه وحده القادر على أن يعوضه عما تسببه البشر من خسائر وكثيرا ما تعرض إمام للنصب والسرقة والغش ولكنه ظل على إيمانه بالله وبعدله فى هذه الحياة ولم يحقد على أحد ولم يعاد أحدا واكتفى بالعيش فى سلام .

بينما كان إمام يسير فى الميدان الكبير دافعا أمامه عربة الحرنكش ينادى على المارة معلننا عن وجوده حدث شيئا غريبا فى الميدان على غير العادة, حيث تجمعت حشود من كل مكان فجأة تهتف وتصرخ بقوة

ـ عاوزين حقوقنا .. عاوزين حقوقنا..

بينما تجمعت فى المقابل حشود أخرى من الأمن المركزي تدمدم فى الأرض بقوة مخيفة , وقف إمام مذهولا مما يرى , ولا يعرف ماذا يفعل إنه فى المنتصف تماما بين الفريقين , أختار إمام أن يدخل بين المتظاهرين ويعبر مغادرا المكان كله فليس عنده أى نية أن يشارك فى أمر كهذا وليست الثورة على أى شئ من طباعه ، أندفع إمام بعربة الحرنكش فى اتجاه المتظاهرين الغاضبين بشده وأعدادهم تزداد كل لحظة مطالبين

بحقوقهم , وبمجرد أن وصلت عربة الحرنكش عند المتظاهرين ابتلعتها الحشود الجارفة فى لحظة واعتبرت عربة الحرنكش غنيمة حرب سقطت عليهم من معسكر الأعداء وتبارى المتظاهرون فى التهام الحرنكش فى نهم شديد بينما أخذ إمام يصارعهم دون جدوى , وظلت الأمواج الهادرة من الثوار تتقاذف إمام والعربة والحرنكش حتى تلاشوا تماما حتى العربة تحولت إلى عصى ودروع فى يد الثوار وسقط إمام مغشيا عليه , بينما مضت الحشود وهى مازالت تهتف

ـ عاوزين حقوقنا ..عاوزين حقوقنا

يفيق إمام على أحد الثوار وهو يحاول إنقاذه فيمسك به إمام بقوة وعنف ويصرخ فيه مطالبا بحقه وحق عربة الحرنكش فهي كل ماله فى هذه الدنيا ، يؤكد له الرجل أن عليه أن يشاركهم فى الثورة وأنها هى الأمل الوحيد فى أن نحصل جميعا على حقوقنا الضائعة ولم يكن لدى أمام اختيارات أخرى الذى نهض مندفعا بكل قوة لينضم إلى الثوار ويهتف مثلهم

ـ عاوزين حقوقنا ..عاوزين حقوقنا

ويتقدم إمام صفوف الثوار ويبدوا فى حالة من الهياج الشديد ويبدوا أن شيئا انفجر فى داخله لا يعرف مداه ولا مقداره , وقفت الحشود الثائرة

بقيادة إمام تصرخ فى وجه القوات الساكنة المتحصنة بالدروع والعصي , بينما تقع عين إمام على أحد الجنود وهو يمسك بثمرة حرنكش يهم بأكلها ليفقد أمام عقله وإرادته تماما ويطير فى الهواء نحو صفوف جنود الأمن ويلقى بنفسه ليسقط على الجنود وسط ذهول الجميع من هذه الشجاعة المفرطة , ولكن الجنود سرعان ما استعادوا وعيهم وهجموا

على إمام جميعا وضربوه بقسوة مفرطة ثم حملوه وقذفوه مرة أخرى نحو الثوار الذين تلقفوه فى حفاوة شديد وكلهم لهفة وشغف لمعرفة من يكون هذا البطل , وتم تصويره بالهواتف ثم نقل إلى المستشفى الميداني وأطلقوا عليه أسم إمام الثورة حيث كان هو أول مصاب فى الثورة على الإطلاق , وتناقلت وكالات الأنباء صور إمام وهو يطير فى الهواء ويصيب الجنود بالذعر من شجاعته الغير معهودة ليحصل إمام على إعجاب الجميع , بينما يتماثل إمام للشفاء تطالبه عده قنوات لعمل لقاءات تلفزيونية معه وبالأخص مع نجاح الثورة وتزايد شعبية إمام الذي بدا متحمسا للثورة بكل قوة مما أثار إعجاب عدد من رجال الأعمال الذين دعوا إمام للانضمام إليهم فى تكوين حزب سياسى يكون هو رئيس هذا الحزب , لم يكن إمام يدرك حقيقة ما يقدم عليه ولكنه وافقهم على كل شئ دون تفكير ومهما كانت الخسائر فلا شئ يضر , رجال الأعمال يفعلون كل شئ لإعداد إمام رجلهم المحبوب ليكون هو مرشحهم فى الانتخابات وإمام لا يعترض على شئ وفى خلال عام واحد كان إمام مستعدا للترشح لمنصب الرئاسة , لقد فعل إمام كل ما طلبوه منه حتى أصبح شخصية عامة لا جدال عليها , وهم من وراءه يحركون الأمور لصالحه , لم يكن إمام يدرك ما يراد منه ولا حتى أراد فى نفسه أن يعرف ولكنه أبدع بطريقة عجيبة فى اجتذاب إعجاب الناس به فهو بسيط حنون مسالم صريح طيب النفس كلها صفات يحبها العامة ويألفوا صاحبها , تدفقت الملايين لدعم المرشح المجهول وجعله هو الأفضل على الإطلاق وتم طمس كل الحقائق التى تحول دون ترشحه لمنصب الرئيس, ليعود المال مرة أخرى بعد الثورة المجيدة ويفعل فعلته ويبدل الحقائق ويشترى الذمم ويهين بالمبادئ والقيم , وتبدأ الانتخابات ويتفوق إمام

على نفسه ويستقوى بنفوذ السلطة والمال وبحب الثوار له الذين ما زالوا يعتقدون أنه إمامها ومشعل فتيلها الأول , حتى تخرج النتيجة بالفوز الساحق لبطل الثورة فى الانتخابات الرئاسية وتهتف الجماهير المؤيدة ـ تحيا الثورة .. تحيا الثورة

ينتقل إمام وأسرته إلى قصر الرئاسة , وعندما جلس إمام لأول مرة على كرسي الرئاسة تجهم وجهه فجأة ونهض من على كرسيه ليأمر الحراس فى حزم وشدة بأن يحضروا الهدية , وسط تعجب الآخرين وتساؤلهم عن نوعية الهدية , يدخل أربعة من الحرس وهم يحملون صندوقا ضخما يضعوه أمام الرئيس , ينهض الرئيس وهو يبتسم ثم يناوله أحدهم مقصا يقطع به الشريط الحاكم , يفتح الصندوق لنراه ممتلئا بكمية كبيرة من الحرنكش ..! تند صيحة إعجاب وفرحة عارمة من إمام الذى يغوص بجسمه داخل الصندوق ويخرج محتضنا كمية كبيرة من الحرنكش فى سعادة بالغة ويقذفه فى الهواء على من حوله ويكرر ذلك فى نشوة جامحة حتى أضطر المحيطون به إلى تجاهل التعجب والتفاعل مع الرئيس الجديد فى فرحته بالتصفيق و التهليل له وهو يلقى عليهم ثمار الحرنكش ..!!

زجـــاجـــات فـــارغة

كانت أجمل قصة حب علي الإطلاق مثقلة بالأشواق مسربلة برحيق العشق الباسم وفي النهاية وبعد صراع مرير مع الموت، تترك البطلة الحبيبة الحياة دون وداع يرجع البطل الحبيب إلي ذات المكان الذي شهد أحلامهم الجميلة وهو يكاد يموت لوعة و حسرة .. شعر الأستاذ حسونة بآلام الدموع وهي تترقرق في عينيه وكأن حبيبته هو التي ماتت, كتب البطل قصته ورسالته الأخيرة إلي حبيبته ثم وضعها في زجاجة فارغة وأغلقها بإحكام ثم ألقي بها في البحر ليرسلها بدوره إلي العالم الآخر.

ينتهي عرض الفيلم ويخرج حسونة من السينما وقد أحمرت عيناه من أثر الانفعال فهو يمقت النهايات الحزينة ، ثم يسير بمحاذاة البحر واضعا يديه في جيبه تاركا الحرية لساقيه تسيران في تؤده وانسجام مع نسمات الهواء المتدفقة خلف أمواج البحر , كان ما يزال تحت تأثير الفيلم وأحداثه يفكر في البطل وموت البطلة وأمنيته التي لم تتحقق بالنهاية السعيدة . لكنه و بعد وقت غير قصير يفيق تدريجيا ليرجع دون إرادة إلي عالمه الحقيقي.. ويعاود التفكير في المشاكل والحقائق السخيفة ويرتطم عقله الغارق في الأحلام بالواقع الصلد العنيد . يعود حسونة

إلي البيت و يذهب إلي العمل في الصباح ولكنه كان صامتا طيلة الوقت علي غير عادته, فهو معروف عنه تلك القدرة العجيبة في السخرية من كل شيء.., الزملاء والرؤساء والحكومة والعمل حتى زوجته وأولاده لا يسلمون من دعابته اللاذعة.. و إن لم يجد شيئا يسخر منه يسخر من نفسه و من قلة حيلته وخيبة أملة و يقول:
- إنها الوسيلة الوحيدة لإهدار شحنة الغضب في نفسه.

ما حدث ذلك اليوم أن حسونة لم يكن علي عادته .. و هو يستعيد تلك المشاهد من الفيلم مرة أخري, البحر والزجاجة الفارغة والورقة والرسالة الموجهة إلي العالم الآخر.

أمسك حسونة بالقلم وأخذ يكتب... ويكتب... دون توقف لحظة واحدة...حتى امتلأت خمسة أوراق كاملة, يترك حسونة القلم و يتنهد بارتياح كأنه فرغ من مهمة خطيرة عظيمة الشأن ثم ينظر إلي الأوراق وهو سعيد ويدسهم في جيبه. في المساء جلس حسونة وحيدا علي البحر عند صخرة العشاق الممتدة في أحشاء البحر, حاملا في يده زجاجة مياه غازية وبعد أن فرغت, أخرج الورقات الخمسة و وضعهم داخل العبوة الزجاجية وأحكم إغلاقها بسداده من الفلين. ثم وشوش البحر وألقاها في الماء.

عاد حسونة إلي البيت باسما مطمئنا وكأنه تخلص من همومه كاملة إلي الأبد وبعد عدة أيام لاحظ حسونة أن شيئا غريبا يحدث علي الشاطئ فأقترب من الجمع حيث وجد أفراد من الشرطة بين المجتمعين وهاله ما رأي. أكوام من الزجاجات الفارغة تحمل في داخلها أوراق ورسائل ألقي بها أصحابها إلي البحر.. نظر حسونة حوله وشعر بأنه فعل جريمة وسمع من يقول:

- إن الأمر يزداد سوء كل يوم.
- الأخطر من ذلك المكتوب في هذه الأوراق أنها كارثة.
- ما العمل ..؟
- الأمر ليس بأيدينا.
- يجب أن نبلغ الرئاسة العامة.
- جريمة خطيرة.. وربما يكون ورائها جواسيس أو مخابرات معادية.

- أسرار الدولة و كل ما يحدث فيها داخل تلك الزجاجات الفارغة.
ابتعد حسونة في بطء وترقب وشعر أنه مطلوب لدى العدالة على جريمته وربما توجه إليه التهم الخطيرة التي تبادرت إلي سمعه منذ قليل ولكنه لم يفعل شيئا غير أنه كتب كل ما يريد أن يقوله في هذه الدنيا في لحظة صدق مطلقة، أفرغ فيها ما في قلبه جملة واحدة فسقطت في خمسة ورقات وألقى بها إلي العالم الآخر ليخبره بما لا يستطيع أن يقوله لأحد في هذه الدنيا, لكن البحر أعاد الزجاجة والأوراق ومعها هذا الكم من الزجاجات والأوراق، يقول حسونة في نفسه
- ربما يكون العالم الآخر هو أيضا مليئا بالآلام و الشكاوى .
في البيت جلس حسونة شاردا عقله يسابق الأحداث المخيفة و يلاحقها إلي مداها السحيق و توقع حسونة في أي وقت أن يعرف أحدهم أمر الزجاجة الأولي الذي هو صاحبها.. و لكن خواطره عاودت الهدوء عندما أدرك أنه هناك مئات الزجاجات ومئات الأوراق وهو لم يكتب أسمه أيضا.
- ربما يتوصلون عن طريق الخط.. !!
- ربما من المعلومات المدونة..!!
الحقيقة أن زجاجة حسونة ألتقطها أحد الصيادين و قرأها فأعجب بالفكرة ثم أعادها إلى البحر كما هي ليصنع زجاجة أخري هو أيضا.. وازداد عدد المعجبين المريدين و تتابعت الزجاجات تنهال علي البحر والعالم الآخر تشكو وتندد وترجوا ليحمل البحر فوق صفحته الناعمة آثام البشر كلها و يتهادى الخبر إلى الصحافة ويتلقف الصحفيون الخبر في شغف و لهفة, موضوع جديد مثير, تنهال المقالات والأخبار تفضح أسرار الزجاجات و ما فيها مما زاد من حماس الناس وأحبوا تلك الزجاجات

التي أعطت لأصواتهم قيمة وحقيقة وتضاعف عدد المعجبين بالفكرة وتضخمت أكوام الزجاجات المكومة على امتداد شواطئ البلدة بصورة مخيفة والشيء العجيب أن الأوراق التي داخل الزجاجات كانت تحمل من الأسرار والتفاهات معا ما لا حصر له.. هذا يكتب عن قصة حبه.. وهذا ينادي بمحاكمة رئيسه في العمل لأنه..!! وهذا يكتب قصة حياته.. وهذه تعترف بحبها لرجل آخر غير زوجها.. وقاتل يعترف بجريمته و يرجو أن يسامحه القتيل.. وهذا بخلاف المطالب السياسية والاقتصادية وزيادة الأسعار و بعض الألفاظ الجارحة.. ملايين من الزجاجات تقذفها الأمواج كل يوم عائدة من العالم الآخر. وكأنه وباء مسلط, تعطلت الملاحة في البحر وهجر المصيفون الشواطئ, تمكنت بعض الزجاجات من السفر إلى الدول المجاورة و هي محملة بما لذ وطاب من الأسرار والمعلومات الكاملة عن البلدة و من فيها.

استعانت الحكومة بجيش من الكناسين والآلات لإزالة أكوام الزجاجات عن الشواطئ.. ونشطت الأجهزة الأمنية إلى الحالة القصوى وألقى مدير الأمن العام بيانا إلى المواطنين العابثين بأمن البلاد ونهاهم عن هذا اللهو الصبياني وطالب كل من له مطلب أو مشكلة أن يتقدم بها لبحثها بالطرق المثلى لحلها وهدد بالويل والعقاب الرادع لكل من تسول له نفسه معاودة تلك الفعلة و أنه سوف ترفع البصمات من على الزجاجات لمعرفة صاحبها.

كان تأثير هذا الخطاب المهدد المخيف معاكسا للمطلوب, حيث ازدادت المشكلة وألقيت الزجاجات بلا بصمات ولا توقيع ولا أسماء ولا صفات.. استغلت شركات ومصانع العبوات الزجاجية ذلك الرواج في المبيعات وتفننت في إنتاج أنواع مميزة من الزجاجات ذات زخارف وألوان وأحجام

وأشكال فنية بديعة وارتفعت أسعار العبوات بشكل مذهل ليصل سعر العبوة الزجاجية أضعاف ما تحويه من منتج. قوات الأمن تلقى القبض علي أعداد كبيرة من المشتبه فيهم حتى امتلأت السجون دون جدوى، مع تفاقم الموقف يزداد الأستاذ حسونة إحساسا بالخوف وينتابه إحساس بالذنب، ويتبادر إلي ذهنه صورته بعد القبض عليه واتهامه بتزعم ثورة في البلدة, لكن الشيء المضحك أن أحد النمامين في العمل أخبره سرا أنه هو صاحب هذه الفكرة. و أنه هو أول من ألقي بعبوة زجاجية في البحر ثم أغلظ حسونة له الأيمان ألا يفشي سره لأحد, أخبره آخر أنه يقذف كل يوم بزجاجة. وأن هناك من يلقون بثلاثة وأربعة زجاجات في اليوم الواحد.

وقال وهو يضحك..

- إن أحدهم كتب نكتة وألقي بها في زجاجة.

- لم يفعل هذا..!!؟

- لم يعد هناك ما يكتبه ..

ضحك حسونة ولكن خوفه لم يهدأ والآلاف من المواطنين يلقي القبض عليهم يوميا لمجرد حمل زجاجة في الحقيبة أو الاقتراب من البحر سرا أو بيع الزجاجات.. ولكن كل هذا ذهب هباءً.. حتى صدر أمرا رسميا يمنع الاقتراب من شاطئ البحر نهائيا وتوقفت أعمال الصيد و الملاحة.. وأختلق هذا الموقف جماعات جديدة من المتطوعين أو المهربين بالمعني الحقيقي يجمع أحدهم الزجاجات في مقابل مادي ويتسلل إلي البحر ليلا ويلقيها ثم يعود وهكذا.. حتى صدر قرار آخر أشد وطأة يمنع بيع وشراء وتصنيع الزجاجات الفارغة أو الممتلئة.. وأغلقت مصانع الزجاج ليظهر متطوعون آخرون وأصبحت السوق السوداء هي الطريق الوحيد

للحصول علي عبوة زجاجية وتفنن المهربون في أداء وظيفتهم وقد تحولوا من تهريب المخدرات والآثار ليتفرغوا نهائيا لهذه التجارة الرائجة. وكاد الأمر أن ينتهي عند هذا الحد ولكن أحد المواطنين استخدم عبوة بلاستيكية بدلا من الزجاج وتكرر ما حدث مع العبوات الزجاجية مرة أخري.. وأغلقت مصانع البلاستيك ومتاجر ومصانع الورق ومصنع الفلين حتى الأقلام أصبحت محظورة إلا في بعض الأماكن الرسمية.

الطلبة في المدارس كانوا يسلمون أقلامهم وأوراقهم قبل مغادرتهم المدرسة ويتم تفتيشهم للتأكد من عدم وجود أي أدوات مهربة..

وكذلك الموظفين. وأصبحت عقوبة حيازة زجاجة فارغة أو ممتلئة من أي نوع جريمة تفوق في خطرها حيازة المخدرات والعملات المزيفة.. توقفت الحياة في المدينة وأصيبت جميع مصالحها ومؤسساتها وأنظمتها بالشلل التام .. حتى لجأت الحكومة في نهاية الأمر إلي المهادنة وأعلنت قبولها لجميع المطالب و الرغبات و أصدرت القرارات والتعديلات اللازمة والمرضية لمصالحة الشعب وأيضا تراجعت القيادات الشعبية عن أعمال الشغب وأعلن رسميا انتهاء عهد الزجاجات الفارغة. لتعود إلي الامتلاء مرة أخرى واستكانت القلوب الثائرة وتخلص البحر من أثقاله ودارت المصانع وفتحت الأبواب المغلقة.

يعود حسونة إلى نفس المكان عند الصخرة على البحر ويكتب رسالة شكر إلي العالم الآخر على معاونته له و وضعها في زجاجة ليعود إلي البيت راضيا قانعا.. ولكن قوات الأمن داهمته وهو في الطريق وألقت القبض عليه و واجه اتهامات لا حصر لها.. فقد كان الشاطئ مراقباً.

البندول

استيقظ الأستاذ حسونة مبكرا.. شاكرا حامدا النعمة ...راضيا مستغفرا من ذنوب وقعت أو توشك أن تقع ، يدخل الحمام .. يحتسي فنجان الشاي حتى آخره .. يرتدي ملابس العمل المعتادة مصحوبا ببعض الأفكار التي تراوده كل يوم لعمل بعض التجديدات بها , لكن الأمل يتبدد أمام كومة الاحتياجات والمطالب التي تتقدم هذا الأمل الطامح , يكون للساعة القديمة التى ورثها عن أبيه والمعلقة على الحائط قدرا وفيرا من الوقت ينفقه الأستاذ حسونة في تأملها و خاصة البندول .

في الظهيرة يعود حسونة من العمل حاملا الجريدة و نوع من الفاكهة يناسب ذلك الوقت من السنة ، وهو فى الواقع ممن يقدسون ساعة القيلولة ويعتبرها من ضروريات الحياة

الأستاذ حسونة من الرواد الأوائل للمقهى ،الذى تأسس على يديه وهو شاب حتى أن صاحبه مات وخلفه ابنه الذي زاد من تودده لحسونة لعدة أسباب أولها انضباطه الغير مسبوق في الحضور اليومي وهو أيضا يحترف لعبة الدومينو والطاولة وكذلك كل اللعب الجديدة التي تبتكرها قريحة المبتكرين يتحفز لها على الفور للحصول على السبق وإحراز الانتصارات وإشعال نار المنافسة بين رواد المقهى ، هذا بالإضافة إلى ثقافته الجرنالية العالية ، لا يفوته خبر ولا حادثة ولا مصيبة إلا وقتلها بحثا وتحقيقا في هذه البلدة أو في البلدان المجاورة وهذا من باب العلم بالشيء ولا الجهل به .

يعود الأستاذ حسونة من جولته المسائية راضيا قانعا بحظه من الحياة.. ينظر إلى البندول المعلق أسفل الساعة, يتوقف للحظات ثم يخلد إلى النوم ...تك .. تك .

بعد مضي عام منذ ذلك اليوم , الأستاذ حسونة يستيقظ من نومه مبكرا.. ويشكر ربه .. ثم يرتاد الحمام .. فنجان الشاي .. يرتدي ملابسه ومازال حلم التجديد يراوده بين الحين والآخر .. يلقي نظرة سريعة على البندول.. يخرج إلى العمل .. مع الظهيرة يعود حسونة في ميعاده المعتاد بصحبة الجريدة والفاكهة .

ساعة القيلولة مازالت مقدسة .. في المساء المقهى والأصدقاء .. الدمينو والطاولة .. أخبار الصحف... يعود حسونة من المقهى .. قانعا راضيا .. ينظر إلى البندول ...ثم النوم .. تك .. تك ..تك

بعد عشر سنوات ... يستيقظ الأستاذ حسونة مبكرا .. يشكر ربه .. الحمام.. الشاي .. الملابس ولا يهم التجديد .. البندول ..يرجع مع الجريدة والفاكهة ...القيلولة ....المقهي ..يؤوب من المقهى بالرضي والحمد .. النوم.. تك .. تك .. تك .

بعد ثلاثون عاما..... يستيقظ المدير العام حسونة بيه مبكرا .. يشكر ربه .. الحمام... الشاي الممزوج بالبن كما أرادت الزوجة .. أو كما قيل أن المدير العام لا يشرب الشاي سادة .. يرتدي ملابسه الأنيقة وقد تلاشى حلم التجديد المؤلم .. لأول مرة يتناول حسونة بيه الإفطار فى البيت ..

فلا يليق بالمدير العام أن يقف أمام عربات الفول .. يصل السائق الخاص.. يحمل الحقيبة إلى مستقرها بالسيارة .. يلقي حسونة بيه نظرة سريعة على البندول ثم يخرج .. يعود حسونة بيه في ذلك اليوم بدون الفاكهة والجريدة لأول مرة منذ ثلاثين عاما فهذا أيضا لا يليق بالمنصب الجديد. يقف حسونة أمام البندول .. يطول انتظاره .. ثم تمتد فترة القيلولة إلى مالا نهاية ... تك .. تك ..تك

الخاتم الماسي

ذلك الصمت والسكون المخيف الذي كنت أخشاه ها هو ذا الجسد يرقد بلا حراك يلتصق غائصاً في حواشي الفراش الأبيض تحت مظلة الموت الداكنة , يلومني الجميع وكأني أنا المسئول عما حدث ، يخرج الأطباء تاركين خلفهم أسباب اليأس و الترقب يمتلك جنبات الحجرة الصامتة , إلا عن بعض الإشارات الصادرة عن أجهزة المراقبة . بعد مشاورات ومداولات امتدت حتى الساعات الأخيرة من الليل ، قال كبير الأطباء

ـ موت اكلينيكي ... مسألة وقت .

كنت أتوقع تلك النهاية و لكنى عجزت أن أفعل شيئاً , كل هذا بسبب ذلك الخاتم الماسي الملعون , ثلاثون عاماً وأنا أدير هذا الجسد بحكمه واقتدار ، بكل أنظمته وأعضاءه وخلاياه لا همسة تصدر ولا خلجة تحدث دون إشارة مني ملايين الأوامر و القرارات والموانع والموافقات تغدو وتروح في اليوم الواحد . تقارير و بيانات وأنظمة ومعلومات كل شئ كان يسير على أكمل وجه , وبفضل رجاحتي تفوق صاحب الجسد واعتلي قمة المجد .

حتى ذلك اليوم عندما أمسكت اليد اليسرى بخاتم الماسي ثمين وألبسته للاصبع في اليد اليمنى ،العين أتلقطت صورا مبهرة للخاتم و أرسلتها إلى كل أجزاء الجسد ، لتسرى فيه رعشة ورعدة فرح وسعادة لا أعرف مصدرها . ربما هى الشهوة أو الرغبة أو العاطفة، لا أعلم ما هي بالتحديد ولكنى التحمت معها في معارك شرسة كثيرة ، فهي عشوائية في معظم أحوالها ولولا اعتراضي لها في أغلب الأوقات لكانت الكارثة، حتى جاء ذلك الخاتم بجماله و بريقه فأفسد على الجسد كله هناءه و هدوءه واتزانه، فالقلب سحره ذلك البريق وأصابه باختلاجات مبهجة, ليقول شيئاً غريباً لم يخطر لأحد على بال.

ـ لماذا هى اليد اليمنى التى تنال التكريم و الشرف وليس اليسرى ...؟؟
قلت ملطفا
ما اليد اليمنى إلا أخت اليسرى .
ولكن إحساس خافت تسلل إلى اليد اليسرى بالدونية و الحرمان . وتحيز الكبد إلى اليد اليمنى للاشتراك معاً في النصف الأيمن و تحفز لمهاجمة القلب و إفشاء ما في سريرته من حقد و غل على النصف الأيسر ... ليقول :
ـ اليد اليمنى هى صاحبة الفضل الأكبر ولهذا استحقت الخاتم .
يضحك القلب ساخراً ويخفق خفاقات قوية وسريعة، ارتجت معها كل أعضاء الجسد حتى الكبد تأثر بشدة وقال القلب في كبرياء .
ـ إن النصف الأيسر يشرفه وجودي فيه , فبدوني لا حياة لهذا الجسد أكثر من دقائق
صرخت اليد اليمنى معترضة .
ـ أنتم دائماً تنكرون تميزنا عليكم .
وأشتد غيظ اليد اليسرى وحنقها وقالت بصوت ساخط .
ـ أنتِ تستحوذين على كل الأعمال الهامة دون مراعاة لأصول أو حقوق... أشعر بالظلم في كل لحظة وأنت لا تبالين بي وبجزعي وأنى أكرهك وأكره النصف الأيمن كله
ونددت اليد اليمنى باليسرى وبكسلها وبطئها وقلة قيمتها حتى تأزم الأمر وتطور وحدث الانقسام , انحازت المعدة والكلية اليسرى إلى النصف الأيسر مع القلب , انقسمت الرئة إلى نصفين ، تخاصمت الكليتان وتشاجرت الساقان ، انتشرت روح العداء والبغضاء حتى وصل إلى الخلايا ذاتها ، طالب القلب بأن يُنقل الخاتم إلى اليد اليسرى دون قيد أو

شرط وتعالت أصوات المنكرين من النصف الأيمن ، صرخت فيهم جميعاً .
ـ أنصتوا إلى جميعا. أنا العقل . أنا أعرف أكثر منكم ... إنها العاطفة هي وراء كل ما يحدث ، هذا الخاتم ما هو إلا قطعة جماد لا قيمة له . مصنوع من بلورات كربونية لا أكثر ، أي عضو منكم قيمته أعظم وأثمن من ألف خاتم مثله .

أصدرت أوامري إلى الجسد كله بالتوقف عن هذه الترهات, لكن القلب هدد بالتوقف عن العمل وتدمير كل شئ .وهدد الكبد بدوره بالتوقف عن أداء مهامه إن انتقل الخاتم إلى اليد اليسرى واحتشد الفريقان وظهرت لأول مره بوادر صراع مرير, حصل الكبد على تفويض من النصف الأيمن لقيادته و سعى القلب في استثارة أعضاء النصف الأيسر للقصاص وتبادل الفريقان التهديدات بالويل والعقاب، وفي محاولة يائسة أقنعت الجانبين بالهدنة والاجتماع وشرعت أقول:
ـ إنكم جسد واحد ، لا حياة لأحد دون الآخر

ولكن صوت الحقيقة تلاشى أمام ذلك الصخب الأعمى من الحقد والمجون ولم يسمع أحد ، عاود القلب اتهاماته للجانب الأيمن بالأنانية , همت اليد اليمنى بالبطش باليسرى ولكنى أسرعت بإصدار أمر الإيقاف , كانت هذه هي أول مره يخرج فيها عضو عن نطاق السيطرة وأحسست بالخوف من تكرار هذا الأمر وفى محاولة يائسة حاولت إقناع صاحب الجسد أن يخلع عنه الخاتم ولكن حبه وعاطفته الجامحة للخاتم كانت تفوق أي صوت أو رأى كدت أن أجن، لا أحد يريد أن ينصت إلىّ وكل هذا بسبب ذلك الوباء الماسي وكانت محاولة الاعتداء بمثابة إشارة بدء

لمعركة حاسمة بين النصفين , ثار القلب و اهتاج واتهمني أنا أيضاً بالتحيز و ساد الهرج وأعلن القلب و حلفاؤه الحرب على الجانب الأيمن وبدأت عمليات الحشد والتأهب ... وانتظمت الخلايا والأعضاء وتأهب الجميع للمعركة الفاصلة . حتى حدث ما كنت أخشاه فقد انقسمت أنا أيضاً وتحيز كل فص إلى جانبه وأصبح طريق الرجوع حلم مقضي عليه , حانت ساعة الصدام المرتقب ، ليبدأ القلب فى الاضطراب لإضعاف الجانب الأيمن وخلخلة صفوفه و توقفت المعدة عن العمل لقطع الامدادات تسارعت الأنفاس فى الانقباض وتوقف الكبد عن أداء مهامه ، بدأت الخلايا المحتشدة على الحدود بين النصفين فى الالتحام في قتال شرس .

تحير الأطباء فى تفسير تلك الظواهر العجيبة التي تحدث جملة واحدة في جسد واحد لم تجد الأدوية و العقاقير وتسارعت حرارة الجسد في التزايد بصورة مطردة ، تنتهي المعركة بانتصار ساحق للنصف الأيسر وتوقفت معظم أجزاء النصف الأيمن عن العمل وللحظات اجتاحت نشوه النصر وسعادة الفوز صفوف النصف الأيسر لينقشع بعدها ظلام الحقد والغل

وتزول سحابة العداء الأسود ثم يسأل الجميع عنى فقلت وأنا ممزق الأعصاب

ـ الموت للمنتصر والمهزوم.

لتنسحق نشوة النصر أمام صوت الحقيقة المفزع. القلب يحزن لفراق الكبد الذي يحتضر. واليد اليسرى تهرع إلى اليمنى تتحسسها في حسرة ولوعة والجميع ينظر إلىّ فى عتاب لكنى كنت في حالة من الوهن لا تسمح لى بإصدار أوامر أو قرارات أو مبررات إنها مسألة وقت كما قال

الأطباء، الموت يصول ويجول في أنحاء الجسد كله يهدم ويدمر ويخرب، يمزق ويقطع ويزحف بإصرار نحو النصف الأيسر وما زال الخاتم الماسي مطوقاً الإصبع الأوسط لليد اليمنى وهو يرفل في بريقه الأخاذ ويمارس سطوته الغاشمة على القلوب والأفئدة ثم ساد الظلام فجأة.

البيـــــدق

في هدأت الليل و تحت وطأة الظلام، تسللت من مضجعي وقد عزمت أن أعرف الحقيقة، مخالفا بذلك جميع الأوامر العليا والتعليمات المستديمة، متجاهلا تحذيرات زملائي من مغبة عصيان الأوامر، ولكن الشوق إلى الحقيقة والفضول قد استبدا بي، لم أعد أطيق الصبر، وتمكنت بالفعل من اجتياز الحاجز الفاصل بين المعسكرين المتحاربين، خشيت أن تفضحني ملابسي البيضاء، ولكن الغريب أنى تمكنت من الوصول إلى هدفي بسهولة، فقد كان المعسكر الآخر يغط في النوم هو أيضا.

اقتربت من غريمي فوجدته نائما، ولم يشعر حتى بوجودي، جلست بجواره أتأمله مليا وأنا أتعجب حائرا.. !!! هذا هو قاتلي..؟!!

هذا هو عدوى اللدود... ؟!! ضحكت في نفسي و تساءلت. كم هو برئ و هو نائم يشبه الملائكة ، كم هو بسيط ضعيف هادئ . أحسست بالارتياح نحوه والعطف عليه وتلاشت مشاعر العدوان والكراهية .. لماذا يجب على دائما قتله..؟

- لأنه سيسارع بقتلك إن لم تفعل

- لكني أراه بريئا ضعيفا، يحلم كما الأطفال.

- لا تغتر... تلك البراءة زائفة خبيثة وراءها الموت والدمار والأشلاء.

ها هي الحيرة تعاودني مرة أخرى، تلك الحيرة التي أفقدتني الراحة والهناء، يجب أن أعرف منه تلك الحقيقة الخبيثة كي أستريح، أيقظته من غفوته فانتصب فزعا عندما رآني أمامه، وهو يرتعد من الخوف غير مصدق ما يرى.

- من أنت..؟!!

- أنا البيدق الأبيض، ألا تعرفني و أنت البيدق الأسود.. أليس كذلك.

- أجئت إلى لتقتلني هنا في الفراش..؟
- بل جئت أسألك، لماذا تحرص دائما على قتلي و أنت لا تعرفني..؟
- أنت الذي تسعى لقتلى.
- لا.. لم أفعل، بل أنت.
- بل فعلت وها هو جسدي ملئ بطعونك، اثنتا عشرة مرة قتلتني فيها.
- و أنا أيضا قتلت أكثر منك.
- هم قالوا لي عنك...
- وهم قالوا لي عنك أيضا.
- إذا....!!! هم..؟!!
- نعم.....هي الحقيقة
- يا لهم من أوغاد.

ومع الوقت تلاشت بيننا نوازع الشكوك والمخاوف وتآلفنا سريعا، وجلسنا نتسامر ونتجاذب أطراف الحديث، نستعيد ذكريات الماضي المترعة بالدماء والحروب والآلام، تعاتبنا وتلاومنا كثيرا ولكننا في النهاية صرنا صديقين، أخبرني البيدق الأسود عن آماله وأحلامه البسيطة، وكأني أتحدث إلى نفسي، إنه مثلي في كل شيء، يحلم بالحب كما أحلم، يشتاق للزوجة والبيت والأولاد كما أشتاق، يهاب الموت كما أهابه، يتمنى السلام كما أنشده، يقاتل لأنهم قالوا له..

- الأبيض عدو
- الأبيض قاتل
- الأبيض دموي
- الأبيض لا عهد له.. إن لم تبادر بقتله فتك بك والتهم لحمك وعظامك

ضحكنا كثيرا وانتحبنا أكثر على سذاجتنا و جهلنا، لكننا لم نعرف بعد،

ماذا علينا أن نفعل بعد ما تيقنا من الحقيقة. البيدق صغير، و البيدق ضعيف و البيدق صوته غير مسموع والبيدق رأيه غير مطلوب، والبيدق حياته رخيصة..

قال البيدق الأسود..

- نخبر الآخرين بما عرفناه. ونفضح أمرهم..

ضحكت من قوله، و قلت في أسف.

- سيسارعون باتهامك بالخيانة والتواطؤ مع الأعداء.

قال البيدق الأسود.

- نهرب من المعركة

- سيرغمونك على القتال أو الموت.

- إذا ماذا سنفعل..؟!!

- نتعاهد ألا يقتل أحدنا الآخر.

وتعاهدنا في ليلتنا تلك وكان كل منا صادق في عهده إلى أقصى حد، وعدت إلى المعسكر الأبيض واستلقيت على فراشي، وأنا مطمئن البال سعيد.

وبعد عدة أيام انتصب الجيشان وانتظمت صفوفهما، استعدادا لمواجهة حاسمة يفصل فيها الموت،

وبينما القتال على أشده، إذ بي أقف في مواجهة البيدق الأسود، وظللنا نتبادل النظرات دون أن يحاول أي منا قتل الآخر، حتى توقفت المعركة وعلت أصوات الاستياء و الاستنكار تدين ذلك السلوك المشين، وصدرت الأوامر العليا إلينا تحثنا على القتال حتى الموت، وازداد الموقف تأزما، بكيت من وطأة القهر وقسوة الموقف على نفسي، كيف أقتل صديقي..؟ إنه مثلي يريد أن يعيش، وأنا أيضا لا أريد أن أموت،

تناهى إلى أسماعنا ضحكات الجميع على هذين البيدقين الساذجين،

اللذان يريدان أن ينهيا آلاف السنين من الحروب والصراع والدماء في لحظة واحدة، قال أحدهم.

- الموت لهما، ولتبقي الحرب إلى الأبد.

- الحروب تكتب التاريخ.

- لا عظماء بلا حروب.

- لن يكون مجد بلا حروب

- تحيا الحروب والموت للخونة

وبعد وقت غير قصير همست إلى صديقي البيدق الأسود.

- يجب أن نتقاتل الآن

- لا تستسلم لهم يا صديقي

- إن لم نفعل... سيلقون بنا في سلة المهملات، بعد إعدامنا رميا بالرصاص بتهمة الخيانة العظمى.

- تريد أن تموت بشرف...؟

- سامحني يا صديقي.. أنا لست سوى بيدق.

السـرداب

تنامى إلى مسامعنا صوت مزلاج الباب الحديدي وهو ينزلق , يدخل حراس سجن الشمس ومن خلفهم عمال المطبخ و الطعام ، الذي لا نعلم صفته , أهو إفطار أم عشاء . فالسجن مكون من حجرة كبيرة تقبع في أعماق الأرض يصلها الهواء بصعوبة مجهزة خصيصاً للمحكوم عليهم بالسجن مدى الحياة ولأن الاتهامات التي وجهت إلينا تشمل التمرد والعصيان ومحاولة انقلاب فاشلة ، بأمر من الحاكم أصبحنا رهائن تلك الجدران الصلدة المصمتة بلا نوافذ ولا فتحات غير الباب فقط وهو يحمل بين أضلعه من القوة والصلابة مالا تطيقه الجدران ذاتها وكثيراً ما تلاومنا و تُعاتبنا على ذلك المصير , الحراس في سجن الشمس يرتدون سترة جلدية سوداء تحمل نقوشاً مزركشة للشمس ، قانون واحد هو الذي يعطى الحق للسجين في الحرية.

من يستطيع أن يهرب و يصل إلى نور الشمس ينال حريته كاملة و يتركه الحراس يمضى في سلام أما إن أمسكوا به دون نور الشمس فإنهم يعيدوه إلى الحجرة المصمتة مرة أخرى , رغم ازدياد أعداد السجناء فإن الحجرة تتسع لنا جميعاً , كنت أنا رساماً وكان منا الشاعر و المطرب وآخرون .

استغل كل واحد منا موهبته ، فرسمت أنا على الجدران الأربعة لوحات كبيرة إحداها للبحر وزرقته ومن فوقه الشمس,رسمت على الآخر حدائق خضراء ومروج ورياحين و قرص الشمس وهو يشرق وعلى الثالث رسمت الجبال والصخور والوديان والصحارى والشمس ... وفى الرابع رسمت صورة لعاشقين يتبادلان الشوق والهيام فوق ربوة عالية تطل على مدينة ترسو تحت أقدامهما والشمس تهب نفسها إلى المغيب الأحمر .

كنت لا أدرك غير الشمس في منامي وصحوي أحلم بها وبيوم الخلاص, والشاعر أبدع يصف جمال الحياة والطبيعة حتى امتلأت الرسومات بالقصائد والأشعار وأصبحت الصور والكلمات تبدو من خلال الضوء الواهن المنبعث من الشمعة الصغيرة وكأنها نقوش المعابد القديمة منذ آلاف السنين , استطاع المغنى بمرحه ودعابته أن يحيل تلك الأشعار إلى أغاني مبهجة ونحن نردد من خلفه . لحظات سعادة نستلها من بين أنياب القهر والحرمان. حتى تلك اللحظة عندما ندت صرخة تعجب من أحد رفقاء السجن قائلا..

ـ إن هذا الحجر يتحرك....!! ربما كان وراءه نفق أو سرداب .

بلهفة وخوف تسارعت الأيدي الملتاعة لتقتلع القالب من جذوره وكانت المفاجأة ...!! أنه سرداب .. لكن الأسئلة المحيرة و المرتابة تتابعت تطيح بالأمل الصغير الواهن .

ـ ربما يفضي إلى حجرة الحراس...!! ربما إلى الخارج ...!!

ـ أو إلى الهلاك .

ـ هل لنا من اختيار..؟ هو حل وحيد لمشكلة أزلية

ـ إن كان الموت وراءه فهو خلاص من عذاب مقيم .

كنت أول المغامرين وأخذت معي الشمعة الصغيرة ، لأول وهلة بدا السرداب ضيقاً مظلماً مخيفاً لكنه يتجه إلى أعلى , بينما تتابعت أفواج المتسللين عبر الكوة في الجدار حتى رأيت من خلال ضوء الشمعة نقوشاً على جدران السرداب تبدو عشوائية بدائية لبعض الطيور والحيوانات ، لكن الأصوات المزعجة من خلفي ظلت تحّثني على الاستمرار في الزحف و المضي في طريقي الذي بدا طويلاً شاقاً مؤلماً والسرداب خانق مخيف حتى علت الأصوات المستغيثة المختنقة .

ـ إلى متى سنظل هكذا ...؟!!

- ألم يظهر النور بعد ...؟

ـ لا أستطيع التنفس ... أخرجوني من هنا .

بينما أصيب أحدنا بنوبة هيستيريا حادة وظل يصرخ حتى أختطفه منا اليأس والإحباط وجعل يلعن الدنيا والشمس والسرداب وكل شئ ويتهمنا بالقسوة والجنون , أوشكت كلماته أن تمزق خيط الأمل الرفيع الذي يربطنا ، إلى أن فقد المقاومة و استسلم لمصيره ليسقط عائداً إلى سجن الشمس وهو يلعن الجميع , اجتاحنا شعور بالارتياح بالتخلص من ذلك الصوت المُحبط بيننا . ولكن لا شيء يبدو في الأفق غير الظلام يخلفه ظلام آخر وصوت الأنات يعلو تدريجياً إلى أن سقط آخر وهو يستغيث, حتى جاء الأمل بوجهه الباسم يحمل معه شعاع ضوء خافت ولكنه يكفى لضخ أطنان من الدماء في عروقنا البارزة , لم أصدق عيني حتى اقتربت منه أكثر وأيقنت أنه حقيقة وأعلنت الخبر المفرح .

ـ إنه النور .. الشمس ... الحرية .

قال المطرب وهو يضحك من الفرح

ـ أرجو ألا تكون حجرة الحراس .

ـ ربنا يستر .

كانت المفاجأة.. عند وصولنا إلى مصدر الضوء لم تكن هذه هي نهاية السرداب ولكنها كوة فى جدار السرداب تفضي إلى حجرة من الطوب اللبن و الخوص تفضي بدورها إلى حجرة أكبر منها تضئ جنباتها بالشموع , ثم خرجنا إلى ساحة واسعة ورأينا أول مرة أُناساً غيرنا ونساء وسوقاً وبائعين وتجار, كل شئ .. ضحكنا و مرحنا وأيقنا أننا نجونا بالفعل,

هاهي الحياة والبيوت والشوارع والخلاء , حياة بسيطة ولكنها حقيقية. وغنينا فرحا بنجاتنا وبعد أن هدأت ثورة الفرح , إذ بخاطر ما يقتحم سعادتي و سؤال يلح بقوة ... أين ضوء الشمس ؟!! لم كل شئ هنا يضاء بالشموع حتى الشوارع والأزقة ..؟!! لما هذا السقف من الخوص في كل مكان أين السماء أين الشمس ..؟!! قال أحدهم .

ـ ماذا نريد من الشمس و لنا تلك الحياة .

شاركه عدد كبير في الرأي , لكنى قلت

- السرداب لم ينته بعد أنا واثق أن الشمس في نهايته . أنا عائد لأكمل الطريق .

تحمس عدد لا بأس به لمعاودة المحاولة من جديد ومن بينهم الشاعر والمطرب وبدأت رحلة جديدة شاقة داخل السرداب المظلم , لكنى لاحظت شيئاً غريبا بدأ يظهر على الجدران ، النقوش قد تغيرت وأصبحت تحمل معاني وكلمات وأشعار ولغات متعددة كانت سعادتي بتلك النقوش الجديدة لا توصف , ظللت أطوف بالشمعة هنا وهناك لأقرأ وأقرأ وحيرني ذلك الأمر و ظللت أتساءل. من كتب تلك النقوش ..؟!

كيف تحمل مشقة النقش والكتابة داخل هذا السرداب المظلم الذى لا نطيق نحن حتى مجرد الزحف داخله...؟!

لكن لحظات الهناء لم تدم طويلاً فقد عاد الألم و التعب و الخوف من الندم يراودنا و تلقيت اتهامات يائسة بأني السبب في هذه المحنة, أطلت علينا الصرخات البائسة من الحناجر الواهنة

ـ لم أعد أقوى على الزحف . إني أموت من التعب .

بالفعل فقدنا واحداً منا سقط مستسلماً ليعود إلى السجن ,لكن رحمة النور سارعت إلينا من وراء ظلام اليأس العنيد لتعاود الظهور وتداعب قلوبنا المتلهفة ,عندما وصلنا إلي مصدر الضوء الذي كان ينبعث من خلال كوة صغير في السرداب تفضي إلى حجرة حديثة البناء تزدان بالزخارف والأثاث الفاخر والكلوبات المدلاة من الاجناب , قابلنا أصحاب البيت بالترحاب والسرور و لأول مره أرى الكتب و الأفلام و الأوراق بيت يحب العلم و القراءة , وقالوا أننا أول أناس يعبرون من هذه الكوة منذ آلاف السنين... وخرجنا إلى الشوارع ورأينا العربات التي تجرها الخيول والسيارات في مهدها الأول , وازدادت سعادة الرفاق بما وجدوه من أسباب المتعة والتمدن وغمرني الجميع بكلمات الاستحسان والمديح وانتشيت بفرحة النصر

لكن ما حدث سابقاً تكرر مره أخرى لا شمس و لا نورولا سماء غير ضوء الكلوبات و اللمبات, تضيء بالنهار و تطفأ بالليل عاودني نفس الإحساس والشوق , عزفت نفسي عن كل شيء وأحسست بالسأم و الجذع , لكن أحدا لم يقتنع بحجتي غير شخص واحد هو الشاعر الذي قال لي .

ـ أنا مثلك كتبت أشعاري أصف الشمس و نحن في الغرفة المظلمة ومازلت أشتاق إليها .

- ولكن الطريق طويل و صعب .

ـ أعلم ..

ـ هيا بنا .

كان أصعب شئ علينا هو وداع صديقنا المطرب الذي وجد لنفسه رزقاً واسعاً من وراء الغناء بين هؤلاء القوم , لم تكن الرحلة سهلة ممهدة , لكننا كنا نؤازر بعضنا بعضا وعادت النقوش تظهر مرة أخرى , لكنى

قرأت أشياء جديدة . معادلات وقوانين و نظريات ومعادلات كيميائية ورياضية وعلوم وفلك وطب ولغات ...قرأت حتى كاد عقلي أن يفلت من نياطة وعندما عاودنا الضوء إلى الظهور ،كان هناك شيئاً جديداً إنه عالم آخر عالم يعمل بالآلات و المعدات . أضواء كهربائية و ليزر .. إبهار في كل شئ ملابس من حرير مقاعد من ذهب وفضه جدران تضئ.. أعمدة شفافة. ما هذا العالم ...؟!! أين نحن ... ؟!! هذا يفوق الأحلام .. أُناس يرفلون في ملابس تتقد أناقة وبهاء , وجوه باسمه , أنغام موسيقية..,, نسيت كل شئ حتى نفسي وأخذت أرقص أنا وصديقي ونغنى أشعارنا القديمة ولكن عندما سمعت كلمة الشمس ... نظرت إلى السماء فلم أجدها , هناك دائما سقف يحجبها , إلي متى نظل هكذا ..؟!!

أنوار الأعمدة الكهربائية في كل مكان. أين الشمس ..؟

أبعد كل هذا العناء ولا نصل إلى الشمس وماذا يكون بعد كل هذا ..؟ لا يوجد شئ آخر أكاد أجن , تذكرت أن السرداب لم ينته بعد لكن رفيقي الشاعر لم يكن بجواري هذه المرة ... وقال.

ـ مالنا و الشمس و تلك السعادة بين أيدينا.

ـ ألا تذكر قانون السجن من يرى نور الشمس يفوز بالحرية المطلقة ولا يخضع لأمرة الحراس .

يومئ الشاعر برأسه في حزن و يقول .

ـ أعلم صدق كلامك لكن هذا قدري ...

تعانقنا عناق الوداع لأعاود النفاذ داخل السرداب مرة أخرى بلا رفيق ولا معين.

ـ تذكر .. من يسقط ويستسلم يعود إلى السجن مره أخرى ..

إنها الحقيقة المخيفة تنتظر سقوطي فاغرة فاها المظلم السحيق تتعطش

لابتلاعي , لكن عشقي للشمس و نورها يفوق كل شيء , ذلك العشق الذي يهون دونه الموت ,اهداني الشاعر كشافاً كهربائياً بدلا من الشمعة وتمني لي النجاح...

لا أقول أنى لم أخف من الفشل بل كنت فزعاً , الطريق طويل وشاق والأمل يهن كل لحظة وجسدي و عقلي كادا أن يتخليان عنى .

مع كل زحفه ازحفها تخرج الأنات والآهات تمرق عبر السرداب و تذوب في داخله . العرق يتفصد من جسدي كله , شيء ما يهمس في أُذني بقوة وإصرار يناديني أن أستسلم وأنا أقول لا ..

الأمر العجيب أن النقوش التي على جدران السرداب كانت أصعب من أن أفهمها أو أعيها إنها أرقام ومعادلات وقوانين تفوق الحصر و نتائج لم أدرك مداها بعقلي , لكن شيئاً عجيباً بدأ يحدث تدريجياً , أحسست أن الكلمات والأرقام بدأت تضئ وكلما زحفت ازدادت توهجاً بألوان عجيبة وجميلة ...نظرت أمامي فلم أجد مصدراً لهذا الضوء , إنه ضوء ينبع من النقوش والحروف ذاتها , ثم شعرت بموجة من هواء بارد منعش تحتوي جسدي كله , ضحكت مستبشراً ,هي البشارة لا محالة , تأججت في جسدي قوة دفع جديدة تحثني لمعاودة الزحف , والنقوش تزداد نوراً على نور وأصبح الكشاف الكهربائي بلا قيمة وسط هذا الضوء ,

ثم ظهرت فجأة كرة ضوء تسبح في الهواء .. لتقف أمام وجهي مباشرة ثم تبدأ في السير نحو الصعود وأنا خلفها , أدركت أنها تحثني على الزحف بل هي تجذبني بقوة خفية , تسارعت حركتي دون إرادة منى, تدفقت إلى جسدي قوى مطلقة وصار مثل ريشة يدفعها الهواء إلى أعلى , اطردت السرعة نحو الازدياد , صرت أطير بسرعة جنونية و النقوش تزداد توهجاً حتى كاد جسدي أن يتوهج هو أيضاً من شدة الضوء أصبحت أنطلق

داخل السرداب كالمقذوف المندفع من ماسورة بندقية ..
صرخت من الفرحة و النشوة , اندفعت خارج السرداب لأطير في الهواء وأسقط فوق كومة من الحشائش الخضراء المنداة بماء الصباح وأبهرني ما رأيت .. إني فوق قمة جبل شاهق مهيب وقد تجلت الطبيعة أمامي بكل صورها وجمالها .. الجبل تكسوه الحشائش والزورع والأشجار و ينتهي في أسفله بنهر بديع ينساب بين الوديان و يتماوج مثل ثعبان يلوذ هارباً بين الأشجار . الشمس الباسمة ترقب كل شيء من بعيد , تهب النور والدفء والحنان لأبنائها أبناء الشمس إنها تداعب جفوني فلا أقوى على النظر إليها, لكنى تذكرت رفقاء السجن وتمنيت أن أعود إليهم لأخبرهم, لكن الفتحة ظلت تضيق حتى تلاشت تماما , رأيت عينا من الماء تخرج من بين صخورالجبل وتنساب حتى تصل إلى النهر, فالقيت بجسدي الواهن وأنا أضحك فرحاً بالشمس والنور , رغم حزني لفراق الأصحاب , لكنى فرحت للقاء المعشوق .

كائنات ضئيلة

وصل الأمر إلى منتهاه ولم يبق غير شيئا واحدا ، هو الموت ذلك الصديق الوفي المخلص الذي يُقدر آلام المعذبين والمقهورين والمنبوذين في هذا العالم يأتي في الوقت المناسب ليصلح العطب و يداوي الآلام المزمنة.

حاولت القفز من فوق البيت ولكني أحجمت رغم أني أسكن السطح في حجرتين صغيرتين إلا أن البيت من أربعة طوابق فقط، ويوجد احتمال بسيط في النجاة وإن حدث هذا أرجع إلى الحياة وأنا محمل بأضعاف المشاكل التي انتحرت من أجلها.. يجب أن يكون السقوط نهائيا ومن فوق أعلي بناء في المدينة كلها حتى يكون سقوطا مهيبا لائقا بمكانتي بين المنتحرين وبلا أدني أمل في النجاة .

أو فى الرجوع إلى زوجتي بدرية التى لم أعرف لها مثيل في القدرة علي العراك والصراخ. والتى بسببها بحثت فى كل المراجع العلمية التي تتحدث عن ترويض المرأة ولم يفلح معها شيء، حتى أيقنت أن ترويضي لنفسي أهون علي كثيرا , فاستسلمت لها مرغما ولكن العجيب أن هذا لم يرضها أيضا وعاودت العراك معي لأني لم أعد رجلا فى نظرها.

أما السيد مدير الشركة فهو لا يستريح إلا إذا أفرغ شحنة غضبة وهو خارج من البيت في وجهي المتبلد كما يدعي كل صباح، رغم أني لا أتوانى لحظة عن رسم الابتسامة الصافية عليه كلما نظر إليّ , وبينما أقود السيارة يتلذذ وهو يعلمني قواعد القيادة ويحذر ويوجه ويرشد ويؤنب, وعند خروجه من العمل يلقاني بوجه ممتعض ليصل إلي البيت مبتسما بعد أن جام غضبه فوق رأسي..

لا توجد طريقة لإرضائه غير الموت,والأولاد يتهمونني بالتقصير في حقوقهم، وأبي مازال يذكرني بنصيحته لي منذ ثلاثين عاما عندما كان ينصحني أن استذكر دروسى , لكني لم أسمع كلامه ولم أكمل تعليمي وهذا هو سبب

تعاستي وتعاسته هو أيضا. والأصدقاء يفوزون عليّ كل يوم في الطاولة لأعود من المقهى خاسرا مصروف اليوم التالي لأقع تحت رحمة بدرية.
فجأة انتابتني حالة غريبة وأصبحت أشعر برغبة في قرض أظافري وأتلذذ بشدة حتى كنت أدمي أصابعي. وحاولت جاهدا الامتناع عن هذا الفعل ولكني لم أستطع، حتى اضطرت بدرية إلى تقييد يدي خلف ظهري أثناء النوم.. ولكني شعرت برغبة حقيقية أني أريد أن آكل نفسي.. قال الطبيب:

- لا تتركوه وحيدا أينما ذهب.

أخطأ الطبيب في نصيحته وحرمني من أجمل لحظات الهناء والسرور، و ازدادت حالتي سوأً بعد سوء.. كنت لا أستريح إلا إذا عضضت شيئا ومزقته بين أسناني وأصبحت أحمل في سترتي قطعة كاوتش لكي أستخدمها عندما تتملكني رغبة العض.

لأول مرة أرى نظرة الخوف والإذعان في عين بدرية.. تنظر إليّ وأنا أمزق قطعة الكاوتش وأفتك بها بين أسناني كأنها تنظر إلي كلب مسعور،

ثم أصرت علي الانتقال للنوم فى غرفة الأولاد, أغراني هذا التغيير الإيجابي وهذا النجاح الملحوظ. فقررت أن استخدم نفس الطريقة مع المدير وأخبرته بمرضي ونصيحة الطبيب لي أن أعض قطع الكاوتش حتى أهدأ, مارست هواية العض في السيارة أمامه لكي أتمكن من القيادة في هدوء, انتشر الخبر في الشركة والحي ولقبت بحسونة المسعور، حسونة العضاض، حسونة الكاوتش .

الكلاب هي المخلوق الوحيد الذي تعاطف معي, كلما رأوني يهزون أذيالهم مرحبين بي فى محبة وتودد.. حتى ذلك اليوم عندما أصيبت أسناني وأضراسي بالوهن والضعف وأجتاحها السوس، لأسقط بين يدي

طبيب أطنه متواطئ مع زوجتي والمدير, لأخرج من عنده وقد فقدت ثلاثة أسنان وضرسان. كانت الخسارة فادحة أو كما يقولون موت وخراب ديار فلم أعد أخيف زوجتي ولا المدير.

رجع كل شيء إلى طبيعته بل أسوأ مما كان ومارس كل منهم حقوقه الشرعية في النيل مني ومن كرامتي حتى قررت التخلص من كل شيء، أنا الآن أقف فوق البرج وفي منتصف النهار حتى يكون الناس شهداء علي أنفسهم, لكني أدركت صعوبة الأمر وسط هذا الكم من زوار البرج وربما حاول أحدهم إنقاذي ومنعي من السقوط.. فقررت أن انتظر حتى يغادر الزوار البرج .

أخذت ألهو بالمنظار الكبير المثبت علي البرج وحاولت العثور علي البيت فهو قريب من هنا , عندما رأيت الأولاد وهم يلعبون فوق السطح وبدرية وهي تغسل.. ضحكت فرحا وأيقنت أني أحبهم كثيرا ثم راودني شعور غريب وأنا أرى بدرية بهذه الضآلة الشديدة وكيف أني سوف أقتل نفسي من أجل تلك المرأة التي لا أستطيع أن أراها إلا إذا استخدمت

ذلك المكبر العملاق وأسرعت أبحث عن مدير الشركة.. ها هو يخرج إلي السيارة ومعه السائق البديل، إنها حقيقة... !! هو الآخر أصغر من قلامة أظافري.. ..!!

ظللت أتنقل هنا وهناك لأرى كل شيء وقد تحول إلي كيانات صغيرة تافهة حقيرة حتى القطار بدا مثل دودة صغيرة تعدو مذعورة لتختبئ بين الشقوق والجحور، لأول مرة أضحك ملئ قلبي ساخرا من جهلي ، ثم قررت الهبوط إلي الأرض، وأنا على يقين تام بأني لن أقتل نفسي من أجل تلك الكائنات الضئيلة...!!

المحتويات

الصندوق	٧
قصتي	١٧
صاحبة العقد	٢٣
بأقصي سرعة	٢٩
المطاردة	٣٩
الوباء	٤٧
العقاب	٥٣
حرنكش	٦١
زجاجات فارغة	٦٧
البندول	٧٥
الخاتم الماسي	٧٩
البيدق	٨٧
السرداب	٩٣
كائنات ضئيلة	١٠٣